الهدیٰ

والتبصرة لمن یریٰ

۱۲ جون سنہ ۱۹۰۲ء

الثمن فی جلد	محصول ڈاک	وی پی
۱۲ر	۱ر	۱ر

طبع فی دار الامان قادیان المطبع ضیاء الاسلام

باہتمام الحکیم فضل دین البھیروی

تعداد اشاعت ۷۰۰

صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرى أولياءه صراطًا يَضلّ فيه الغَطَاط، وجلّى لهم نهارًا لا يُبصر فيه الوَطْوَاط، وأسلكَهم مسالكَ لم يَرُضْها مطايا الأبصار، وفجّر لهم ينابيع ما اهتدت إليها طيور الأفكار، والصلاةُ والسلام على خاتم الرسل الذي اقتضى ختمُ نبوّته أن تُبعَث مثل الأنبياء من أمّته، وأن تنوِّر وتُثمِر إلى انقطاع هذا العالم أشجارُه، ولا تُعفَّى آثاره، ولا تُغيَّب تذكارُه، فلأجل ذلك جرتْ عادة الله أنه يرسل عبادًا من الذين استطابهم لتجديد هذا الدين، ويعطيهم مِن عنده علم أسرار القرآن ويبلّغهم إلى حق اليقين، ليُظهِروا معارف الحق على الخَلق بسلطانها، وقوّتها ولمعانها، ويُبيّنوا حقيقتها وهويّتها، وسُبلَها وآثار عرفانها، ويُخلِّصوا الناس من البدعات والسيئات وطوفانها وطغيانها، وليقيموا الشريعة ويفرشوا بساطها، ويبسطوا أنماطها، ويزيلوا تفريطها وإفراطها. وإذا أراد الله لأهل الأرض أن يُصلِح دينهم، وينير براهينهم، أو ينصرهم عند حلول الأهوال والمصائب والآفات، أقام بينهم أحدًا من هذه السادات، ويؤيّده بالحجج القاطعة والآيات، ويشرح صدور الأتقياء لقبوله ويجعل

الرجس على الذين لا يتّقون. ففريق من الناس يؤمنون به ويصدّقون، وفريق آخر يكفرون به ويكذّبون، ويقعدون بكل صراط ويؤذون، ويمنعون كلَّ من دخل عليه ولا يُخلّصون، فتهيجُ غَيرة الله لإعدامهم، لينجي عبدَه مِن اجْلِخْمامِهم، فما زال بالكافرين يُهلِك هذا ويدفع ذاك حتى تصير الأرض خالية من تلك الهَوام، ويحصل الأمن للأبرار الكرام، وتحتفل الملّة مِن نُخب الإسلام كنجوم منيرة مشرقة في الظلام. وهذا من أكبر علامات الذين يأتون من حضرة العزة والجبروت، وينزلون إلى الناسوت، ليجذبوا خلق الله إلى عالَم الملكوت واللاهوت. وإنّ الله يجلو بهم الغياهبَ، ليبتلي الخبيثين والأطائب، ويُرِي الفائزَ والخائب، فتسعد نفسٌ وأخرى تشقى، ويُحيى أخ وأخ آخر يُفنى، ويُنصَر المأمور في الأرض ويُمهَل حتى يفلّ شَبَا العِدا، ويزول الظلام وتطلع شمس الهدى.

فالحاصل أن أولياء الله لا يُهلَكون كالكاذبين، ولا يكون مآلهم كالمفترين، بل يُعصَمون ويُقبَلون ويُنصَرون ويُؤْثَرون على العالمين، ولا يُضاعون ولا يُجاحون، ويعيشون أمام أعين ربهم فائزين. وإنهم حجّة الله على الأرض ورحمة الحق لأهل الأرضين. وليست شقوةٌ في الدنيا كإنكار المأمورين، ولا سعادة كقبول هؤلاء المقبولين. وإنهم مفتاح حصن الأمن والأمان وحرزُ الداخلين، فما بال الذي

فقد هذا المفتاح وما دخل الحصن وقعد مع المخرَجين؟ وإنّ أشقى الناس رجلان.. ولا يبلغ شقاوتَهما أحدٌ من الإنس والجان: رجلٌ كفر بخاتم الأنبياء، ورجل آخر ما آمن بخاتم الخلفاء، وأبى واستكبر وأساءِ الأدب عليه وترك طريق الحياء، وما تأدّب مع الله وأهلِه الموعود وبلّغ التوهين إلى الانتهاء، ولو لم يتولّد لكان خيرًا له مِن سوءِ العاقبة وسخطِ حضرة الكبرياء، ولسوف يذوق ذواق السبّ والشتم والازدراء، وإن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم الذين خُتمت على قلوبهم لا ينتهون، وإذا قيل لهم آمِنوا وأصلِحوا ولا تُفسدوا قالوا بل أنتم مفسدون. وحسبوا الغيَّ رشدًا، والفساد صلاحًا، فهم لا يرجعون. فكيف إذا زهقت نفوسهم وأُظهِرَ ما كانوا يكتمون؟ وإذا قيل لهم أما جاء رأس المائة قالوا بلى، فقُلْ أفلا تتّقون؟

إن مثل المؤمنين والمكذّبين كمثلِ حيّ وميت، هل يستويان مثلا؟ فبشرى للذين يُوفَّقون.

وقالوا لستَ مُرسلاً، بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه فسوف يعلمون. إن الذين صدّقوا أولئك هم المنصورون، ولا يرهق وجوهَهم قترٌ ولا ذلّة ولا هم يُفزَعون. إن الذين كفروا ما نفعهم خسوف ولا كسوف ولا آيات أخرى بل هم يستهزئون. يعرفون ثم يبخلون بما آتاهم الله من العلم، وانكشف عليهم الهدى ثم لا

يهتدون. وجَنَّ عليهم ليلٌ من التعصّب فهم فيه يُمسون ويصبحون. يرون آياتِ الله بأعينهم ثم ينكرون. وما كنتُ متفرّدًا في هذا بل ما أتى الناس مِن رسول إلا كانوا به يستهزئون، وهلمّ جرًّا إلى ما تشاهدون.

وإني رأيت دهرًا ظُلْمَ هؤلاء الأشرارِ في هذه الديار، وآنستُ غُلُوَّهم في الإنكار والاحتقار، وجرّبتُ أن لهم قلوبا سيرتُها اللَّدُّ والاحْرِنجامُ، وفطرةً شيمتُها التكذيب والاتّهام.

فلما يئست منهم انصرف قلبي إلى بلاد أخرى، لعلّي أرى الأنصار أو أجد فيهم قلبًا أتقى، فذكرتُ علماء الشام ومَن بها من الكرام، وأردت أن أرسل إليهم للاستشهاد، ليُجيبوا بالصدق والسداد، وينقلوا الحق من الوهاد إلى النجاد، فأُخبرتُ أن المناظرات فيهم ممنوعة، والقوانين لمنعها موضوعة، فذهب وهلي بعد ذلك أن المراد يحصل مِن أرض مصر وأهلها المتفرّسين، والمخصبين بعِهاد العلم والمثمرين، وزعمت أن فيهم قوما يُعَدّون من المحقّقين، ومن الأدباء المفصحين، وخلتُ أنهم من المتدبّرين، وليسوا من المستعجلين والجائرين. فقادني هذا الظنّ إلى أن أرسل إلى مدير "المنار" ورِفقتِه كتابي "الإعجاز"، ليقرّظوا ويكتبوا عليه ما لاق وجاز، وآثرتُهم على علماء الحرمين والشام والروم، لعلّي أسرو بهم غواشيَ الأفكار

والهموم، ولأطفئ بهم ما بي من جمرة الأذى، وليُعينوني علـــى الـــبرّ والتقوى. ثم لما بلغ كتابي صاحبَ "المنار"، وبلغه معه بعض المكاتيب للاستفسار، ما اجتنى ثمرة من ثمار ذلك الكلام، وما انتفع بمعرفةٍ من معارفه العظام، ومال إلى الكَلْمِ والإيذاء بالأقلام، كما هـــو عـــادة الحاسدين والمستكبرين من الأنام، وطفِق يؤذي ويُزري غيرَ وانٍ في الإزراء والالتطام، ولا لاوٍ إلى الكرم والإكرام، كمـــا هـــو ســـيرة الكرام، وعَمَدَ إلى أن يؤلمني ويفضحني في أعين العـــوام كالأنعـــام، فسقط من المنار المنيع وألقى وجودَه في الآلام، ووطئني كالحـــصى، واستوقد نار الفتن وحضى، وقال ما قال وما أمعنَ كأولي النـــهى، وأخلد إلى الأرض وما استشرف كأهل التقى، وخرّ بعد ما عـــلا، وإن الخرور شيء عظيم فما بال الذي من المنار هـــوى، واشـــترى الضلالة وما اهتدى.

أم له في البراعة يدٌ طُولى؟ سيُهزَم فلا يُرى. نبأٌ من الله الذي يعلم السرّ وأخفى. إنه مع قوم يتّقونه ويحسنون الحـــسنى. ينـــصرهم في مواطن فتكون كلمتهم هي العليا. وإن الألسنة كلها لله، فيجعـــل حظًّا منها لمن شاء وقضى. وإن عباده المنقطعين ينطقون بروحه ولا يُعطى لغيرهم هذا الهدى. وكل نور ينـــزل من السماء، فما بيدكم أيها النَّوكى؟ أتغترّون بلسانكم وقد هبّت عليه صراصـــر عظمـــى؟

واليوم لستم إلا كعجميّ فلا تفخروا بما مضى. وبُدّلت ألسنُكم كلَّ التبديل فأنَّى التناوش من مكان أقصى؟ أتنسون محاوراتكم أو تخدعون الحمقى؟ وإن رسول الله وسيد الورى ما سمّى أرضكم هذه أرض العرب، فلا تفتروا على الله ورسوله وقد خاب من افترى. فدَعْني أيها الفخور من هذا وامض على وجهك، والسلام على من اتّبع الهدى.

وكنتُ رجوتُ أن أجد عندك نصرتي، فقمتَ لتندّد بهواني وذلّتي، وتوقّعتُ أن يصلني منك تكبير التصديق والتقديس، فأسمعتَني أصوات النواقيس، وظننتُ أن أرضك للتحصّن أحسنُ المراكز، فجرّحتَني كاللاكز والواكز، وذكّرتني بالنَّوش والنهش والسبعيّة نُبَذًا من أيام الخصائل الفرعونية. ولستُ في هذا القول كالمتندّم، فإن الفضل للمتقدّم. وكنتُ أتوقع أن يتسرَّى بمؤاخاتك همّي، ويَرْفَضّ بجندك كتيبةُ غمّي، فالأسف كل الأسف أن الفراسة أخطأتْ، والرويّة ما تحقّقت، ووجدتُ بالمعنى المنعكس ريّاك، فهذه نموذج بعض مزاياك، وعلمتُ به أن تلك الأرض أرضٌ لا يفارقها اللظى، وتفور منها إلى هذا الوقت نارُ الكبر والعُلى، فعفا الله عن موسى، لِمَ تركها وما عَفّى.

فحاصل الكلام أنك زعمتَ أن كتابي مملوٌّ من السهو والخطــاء، وما أتيتَ بدليل من النحويين أو الأدباء، فأشكو إلى الله مِن جَورك هذا والافتراء، فإنك شمستَ لي مِن غير سبب ومِن غــير أســباب البغض والشحناء. أَوَ جعلتَ معيارَ الصحّة لسانَك الذي تكلّم بــه عشيرتك من البنات والنساء؟ وما تصفّحتَ كتابي وغلّطتَ مفرداتِه وتراكيبَه، وخطّأتَ أفانينه وأساليبه، وأســخطتَ حــسيبك ومــا خشيت تعذيبه، وكذّبتَ وأغلطت الناسَ، وخببتَ واتّبعت الخنّاس، وقلتَ كتاب مملوّ من الأغلاط المنكرة، وفي سجعه تكلّفٌ وضعف وليس من الكلم المحبَّرة، والمُلَحِ المبتكرة، ويوجد فيه ركاكة العُجمة. وحسبتُك حبيبا يريحني كنسيم الصباح، فتراءيتَ كعــدوٍّ شــاكي السلاح، وخلتُ أنك تهدر بصوت مبشِّر كالحَمام، فأريتَ وجهك المنكر كالحِمام.

وأعجبني حِدّتُك وشدّتك من غير التحقيق، فأخذني ما يأخــذ الوحيدَ الحائر عند فقد الطريق، لكني أسررتُ الأمر وقلت في نفسي لعلّه تصحيف في التحرير، وما عمد إلى التوهين والتحقير، وكيــف قصد شرًّا لا يزول سواده بالمعاذير، وكيف يمكن الجهر بالسوء مِن مثل هذا الفاضل النِّحْرير. ولما تحقّق أنه منــك تقلّــدتُ أســلحتي للجهاد، وقلتُ مكانَك يا ابنَ العناد، فدوني شرطُ الحِداد وخَــرطُ

القَتاد. وعلمتُ أنك ما تكلّمتَ بهذه الكلمات، إلا حسدًا من عند نفسك لا لإظهار الواقعات، فابتدرتُ قصدَك، لئلا يصدّق الناسُ حسدك، فإن علماء ديارنا هذه يستقرْون حيلةً للإزراء، فيستفزّهم ويُجرِّئهم عليّ كلُّ ما قلتَ للازدراء، ولولا خوف فسادهم لسكتُّ، وما تفوّهتُ في هذا الأمر وما تجلّدتُ، ولكن الآن أخافُ على الناس، وأخشى وسوسةَ الخنّاس، وإن بعض الشهادات أبلَغُ في الضرب من المرهفات، فأخاف أن يتجدّد الاشتعال من كلمات "المنار"، ويسقط ميمُه ويبقى على صورة النار. وكنّا هزمنا العدا، وفرغنا من الوغى، ونابلْنا فكان لنا العُلى، وبذل الجهدَ كلُّ مَن رمى، حتى نثلت الكنائن، وفاءت السكائن، وركدت الزعازع، وكفّ المتنازع، وجعل الله الهزيمة على كلّ مَن بارى، وأهلَكَ مَن مارى. فالآن أُحْيِيَ اللئامُ بعد الممات، وشَدَّ "المنارُ" عَضُدَهم بالخزعبيلات، فأرى أنهم يتصلّفون ويستأنفون القتال، ويبغون النضال، ويخدعون الجهّال، ورجعوا إلى شرّهم وزادوا ضدًّا، بما جاء "المنار" شيئا إدًّا، وجاز عن القصد جدًّا، فأكبَرَ كَلِمَه حزبٌ من العمين، وأين جهابذة الكلام كالسابقين، بل يتّبعون كلَّ ما يسمعون من الحاسدين المفسدين، وليس فيهم ذَواقُ العبارات المهذّبة، ولا الإعناقُ للوصول إلى المراعي المستعذَبة. لا يعلمون لطف الأساجيع

المستملَحة، ولا لطافةَ الكَلِم الموشَّحة. يقولون نحن العلماء، ولا يشعرون ما العلم وما الدهاء. وما كان لي حاجة إلى ذكر هذه القصّة، وإظهار هذه الغصّة، لِما لم يكنْ مدير "المنار" وحده بدعًا من المزدرين والمحقِّرين، بل تعوّدَ العدا كلُّهم بالتوهين، ليصدّوا الناس عن سبيل المهتدين، ويُلحقوهم بالمعتدين، وترى كثيرا منهم يوجدون في هذه البلاد، وتعرفهم بقترٍ رهقتْ وجوهَهم مِن ثور مواد العناد. يذكرونني كمثل ما ذَكَرَ، ويزدرونني كمثل ما احتقَرَ، فلا ألتفتُ إليهم ولا إلى أقوالهم، وأُعرِضُ عنهم وأقول: جهّال يصرخون بما ضُرِبَ على قُذالهم، وأيّ خير يُرجى منهم مع إصرارهم على ضلالهم؟ ولكنْ رأيت أن صاحب "المنار" عُظِّمَ في أعين هذه الأشرار، وأكبَرَ شهادتَه بعضُ زاملة النار، وكانوا يذكرونها بالعشيّ والأسحار، فبلَغني ما يتخافتون، وعثرتُ على ما يُسرّون ويأتمرون، وأُخبرتُ أنهم يضحكون عليّ وفي كل يوم يزيدون. فلما رأيت أنهم اغترّوا بلامِعِ القاعِ، ويَرامِعِ البِقاعِ، وزادوا في العناد والفساد، وخيفَ أن يعمّ فتنُهم هذه البلادَ، ورأيت أنهم يرونني بشزرِ عينيهم، ويصفّقون بيديهم، ويأخذونني كالتلعابة، ويُجَعْجِعون بي للدعابة، ويجعلون كلام "المنار" كحيلة للتجهيل والتخطية والاحتقار، شمّرتُ

تشميرَ مَن لا يألو جهادًا، ويضع فأسًا في رأس من رمى الجندل عنادًا.

وبالذي سبقتْ رحمتُه غضبَه، وفلّتْ رأفتُه عضبَه، ما كنتُ أظنّ في صاحب "المنار" إلا ظنّ الخير، وكنتُ أخال أنه قال ما قال مِن مصلحة لا من إرادة الضَير، ولكن ظهر عليّ بعد ذلك أنه ما كفَّ اللسان كما هو مِن سِير الكرام والطبائع السعيدة، بل أصرّ على الازدراء في الجريدة، فأكل الحاسدون حصيدة لسانه كالعصيدة، وتلقّفوا قوله وجدّدوا الخصومة بعد ما قطعوها كما هو مِن شِيم القرائح البليدة، وحسبوا كَلِمَه كالأسلحة الحديدة، وأشاعوها في الأخبار والجوائب الهندية، وكتبوا كلّ ما يشُقّ سماعُها على الهِمم البريئة المبرَّأة، وآذوا قلبي كما هي عادة الرُذَّل والسفهاءِ وسيرة الأراذل من الأعداء. وكانوا يمشون مَرَحًا بالخيلاء والامتطاء، كأنهم أُلبسوا من حُلل الحَبْرِ والوشاء، أو فُتِحت عليهم مدائن أو رُدَّ أحياؤهم الميّتون إلى الأحياء. وأحسستُ أن فتنتهم هذه تضرّ العامّة كالأغلوطات، ويعُدّون هذه الأقوال من الشهادات القاطعات، وكفى هذا القدر لخدع بعض الجهلاء، وإغلاطِ بعض البُلْهِ قليل الدهاء، فرأيتُ جوابه على نفسي حقًّا واجبًا لا يوضع وِزْره بدون القضاء، ودَينًا لازمًا لا يسقط حبّةٌ منه بغير الأداء، فإنّ دفع أوهام

العامة من واجبات الوقت وفرائض الإمامة. فقلّبتُ وجهي في السماء، وطلبت عون الله بالبكاء والدعاء، ليهديني إلى طريق إتمام الحجّة، وإحقاق الحق وإبطال الباطل وإيضاح المحجّة. فأُلقيَ في رُوعي أن أؤلّف كتابا لهذا المراد، ثم أطلب مثله من هذا المدير ومِن كلّ من نهض بالعناد من تلك البلاد. وكنتُ أُقبِل على الله كل الإقبال، وأسعى في ميادين التضرّع والابتهال، حتى بانت أمارة الاستجابة، وانجابت غشاوة الاسترابة، ووُفّقتُ لتأليف ذلك الكتاب، فسأرسله إليه بعد الطبع وتكميل الأبواب. فإنْ أتى بالجواب الحسن وأحسن الردّ عليه، فأحرقُ كتبي وأقبّل قدميه، وأعْلَق بذيله، وأكيل الناس بكيله. وها أنا أقسم بربّ البريّة، أؤكّد العهد لهذه الأَلّيّة. وإنّ كَلْمَ الأحرار بكلام، أشدُّ جرحًا من جرح سهام، بل هو أشقّ عليهم من قتلهم بلَهْذَمٍ وحُسام. وإنّ جراحاتِ السنان لها التيام، ولا يلتام ما جرح كلامٌ.

وأمّا ما ادّعى من المعارف والفصاحة، كما يُفهم من قوله بالبداهة، فهي مقالة هو قائلها ولا نقبله إلا بعد ثبوت النباهة. وما أتظنى أن يكتب "المنار" مِن معارف كمعارف كتابي، ويُري بريقًا كبريق ما في قِرابي.

ثم مع ذلك تناجيني نفسي في بعض الأوقات أن من الممكن أن يكون مدير "المنار" بريًّا من هذه الإلزامات، ويمكن أنه ما عمد إلى الاحتقار والنطح كالعجماوات، بل أراد أن يعصم كلام الله من صَغار المضاهاةِ*، وإنما الأعمال بالنيّات. فإنْ كان هذا هو الحق فلا شكّ أنه ادّخر لنفسه بهذه المقالات كثيرا من الدرجات، فإن حُبّ كلام الله يُدخِل في الجنّة، ويكون عاصمًا كالجُنّة. وأيّ ذنب على الذي سبّني لحماية الفرقان، لا للاحتقار وكسرِ الشان، ونحا به منحى نُصرةِ الدين، لا لَظَى التحقير والتوهين! وهل هو في ذلك إلا بمنزلة حُماة الإسلام، والدّاعين إلى عزّة كلام الله العلاّم، الذي هو مَلِكُ الكلام؟ واللهُ يعلم السرّ وما أخفى، ولكل امرئٍ ما نوى. ولكني مُعتذر كمثل اعتذاره، فإن الفتن قد انتشرت من أقواله وأخباره، فوجب أن أشمّر عن ذراعي لثأره، ولم يكن لي بدّ من أن أفضّ خَتْمَ سرِّه، واللهُ يعلم حقيقة نيّته وكيفيّة بريّتِه وبِرِّه. فإنْ كان نوى الخير فيما قال، فسيعتذر ولا يبتغي النضال، وإنْ كان قصد

* **الحاشية:** وأظن أنه استشاط مِن منع الجهاد، ووضعِ الحرب والسيوف الحداد. وإن الوقت وقت إراءة الآيات، لا زمان سلِّ المرهفات، ولا سيفَ إلا سيف الحجج والبيّنات، فلا شك أن الحرب لإعلاء الدين في هذه الأوقات، مِن أشنع الجهلات، ولا إكراه في الدين كما لا يخفى على ذوي الحصاة. منه.

التوهين والاحتقار، فسيقضي الله بيني وبينه ومَن ظلم فقد بار. وإني سأرسل كتابا إلى مدير "المنار"، ليفكّر فيه حق الإفكار، فإمّا اكفهرارٌ بعدُ وإمّا اعتذار، وإنّما هو لإظهار الحق معيار. فإنْ تنصّلَ "المنار" من هَفْوته، وتندّمَ على فَوهته، فما لنا أن نأخذه على عثرته. وإنْ لم يتوسّم قِرْنَ نضاله، ولم يطّلع على حُللي وعلى أسماله، فعليه أن يكتب كتابا كمثل كتابي وعلى منواله، ليحكم الله بيننا بعد بثّ الأسرار، ونَثِّ الأخبار. وأرجو من الله أن يبعث بعض أولي الأبصار، وفضلاء الديار، ليفتحوا بالحق بيني وبين مَن يرقص على "المنار"، وليتدبّروا كلامي وكلامه بالغور التام، وليستشفّوا جوهر الكلام، ويميزوا النور من الظلام.

وأعترف أن بعض أهل الجرائد أُعْطوا نُبَذًا من الفصاحة، ورُزقوا طرزًا من الملاحة، ولكن لا لإعلاء كلمة الله بل للاستماحة، ليحرزوا العين ولو بالكذب والوقاحة. فلا ننكر حذقهم بزرقهم وتَمَحُّلِ رزقهم، طورًا بالإطراء والأخرى بالازدراء، لينثالوا على أنفسهم الدراهم وليتخلصوا من اللّأْواء. فلا شك أنّ لَسَنَهم من الولاية الشيطانية، لا من الكرامة الربّانية، ومِن حِيَل الاقتناء والاحتياز، لا من بدائع الإعجاز.

وإن بلاغتي شيء يُجلى به صدأ الأذهان، ويجلّي مطلعَ الحق بنور البرهان، وما أنطق إلا بإنطاق الرحمان، فكيف يقوم حِذَتي مَن قيَّد لَحْظَه بالدنيا ومال إليها كل الميلان، ورضي بزينتها كالنسوان؟ أم يزعمون أنهم من أهل اللسان؟ سيُهزَمون ويولّون الدبر عن الميدان. ومَثلهم كمثلِ ظالِعٍ يريد ليدرك شَأْوَ الضليع، فلا يمشي إلا قدمًا ويسقط على الدسيع، أو كرجُلٍ راجلٍ وحيدٍ يسري في ليلة شابت ذوائبها، وانتابت شوائبها، واشتدّ ظلامها، وكثر هوامها، وهو ينقل تائهًا من واد إلى واد، وليس معه سراج ولا يسمع صوتَ هاد، وما رافقَه من رفيق وما تزوّد مِن زاد، ولا يجد خفيرا، ولا يرى بشيرا، ولا مصباحا منيرا، ورجل آخر أراد سفرًا بالخيل والرَّجّالة، فتدثّرَ فرسًا كالغزالة، وخرج من البلدة إذا ذَرَّ قرنُ الغزالة، مع رفقةٍ كالهالة، عاصمين من الضلالة، هل يستوي ذلك وهذا عند أولي النهى؟ وإن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

فالحق والحق أقول، إن أهل الله يُرزَقون من ربّ العباد، ويُهدَون إلى طريق السَداد، ويُهيَّأُ لهم جميع لوازم الرشاد، ويُعطى لهم كلّ قوّة وجبت للعتاد، وكفتْ للارتقاء على المصاد، فما كان لأهل الدنيا أن يسابقوهم ويأتوا بأكبادٍ مثل تلك الأكباد، ولو استنّوا استنانَ الجياد، وكيف وإنّ قلوبهم منتشرة كانتشار الجراد، وإنّ ألسنهم على

النجاد، وأرواحهم في الوهاد. يقولون إنّا نحن من العرب، وغُــذِّينا مِن أمّهاتنا دَرَّ الأدب، وإنّا في مُلك النطق كأقيال وأبناءِ أقوال. فقد استكبروا بنفوسهم الأبيّة، وألسنتِهم العربيّة، وأوطنوا أنفسهم أَمْنَــعَ جنابٍ، وزعموا أنهم يفُلّون حَدَّ كلِّ ناب. وما عرفوا مِــن غبــاوة الجنان، أن أولياء الرحمن يُعطَون ما لا يُعطَى لأهل اللــسان، مــن المعارف وحسن البيان، ولا يُدرك براعتَهم غيرُهم مع جهدٍ مُعنِّــتٍ وصرفِ الزمان، وأنَّى لهم نصيب من هذا الشان، ولو أُوتوا بلاغــة سحبان، فإنهم ما صقلوا مرآة الإيمان، وما ذاقوا طعم العرفــان، ثم جمعوا بين الحمق والحرمان، وما استطاعوا أن يرجعوا إلى الــرحمن، بل صار شغل جرائدهم في سُبُلهم كالصَلات، فهم يحافظون عليــه كفريضة الصلاة. يشيعون الجرائد لقبض الــصِلات، واستنــضاض الإحالات، إلا قليل من أهل التقاة. وأكثــرهم لا يطــيرون إلا في الأهواء، وقُصَّ جناحهم من الطيران إلى السماء. يمشون في الظــلام المسبل، وتراهم لدنياهم في التململ، وتــصرخ أقلامهــم للقِــرى المعجَّل. يطلبون لَقوحًا غزيرةَ الدرّ، قليلة الضرّ. يستقْرون الصيد إلى السواحل، والأحبولة على الكاهل، ويقترون كلَّ شَجْراءِ ومَــرْداء، ويجوبون لها البيداء والصحراء. وما ترى أحدًا منهم قرير العين، إلا بإحراز العين، وتمضي ليلتهم جمعاء في هذه الخيالات، والنهار أجمع

في نحت العبارات. فما لهم وللروحانيين، والعباد الربّانيين، الـــذين يُعطَون عذوبة اللسان وطلاقة كالعين، ويُرزقون بصيرة القلب مـــع نور العين، ويفوزون من ربّهم بالسهمَين، ويرجعون بالغُنْمَين. وإنّهم قوم نزلوا عن متن ركوبة الأهواء، وحلُّوا فِناءَ الفَناء. جلّتْ نيّتـــهم، وقلّت غفلتهم. لا يرون في سبيل الله أثرًا إلا يقْفونه، ولا جَـــدْرًا إلا يعلونه، ولا واديًا إلا يجزعونه، ولا هاديًا إلا يـــستطلعونه. عُـــشّاق الرحمن، وفي سبيله كالنشوان. من ذا الذي يقـــرع صَـــفاتَهم، أو يُضاهي صِفاتِهم. ومَن جاءهم كدبير، فقد لُفِحَ ولا كلَفْحِ هجـــير. إنهم يسعون إلى الحضرة عند المشكلات، بدمعٍ أحرَّ مِن دمع المِقلاة. وإنّ مثلهم كمثل سرحة كثيفة الأغصان وريقة الأفنان، مثمرة بثمار الجِنان، ومن أتاها تُساقط عليه رُطَبًا جنيًّا فطُوبى للجوعان! إنهم قوم زَكَّوا دِثارهم وشِعارهم، وخرجوا من أنفسهم وزايلوا وِجـــارَهم، ورحموا مَن جارَ عليهم وجارَهم، وأطفأوا نـــار الـــنفس وكمّلـــوا أنوارهم. وأمّا نفوس أهل الدنيا فتُشابِهُ يومًا جوُّه مُزْمهرّ، ودجنُـــه مُكفهرّ، وتراهم عاريَ الجلدة مِن حُلل الاتّقاء، وباديَ الجردة مـــن غلبة الفحشاء. قد اعتمّوا بِرَيْطة الاستكبار، واســـتثفروا بفُوَيْطـــة الخيلاء والفخار، فكيف يؤيَّدون من رب العالمين؟ بـــل وراءهـــم ضَفَفٌ وكرشٌ يدعوهم إلى الشياطين. يبكون أنهم أُهلكـــوا مـــن

الشظف وصفرِ الراحة، وحَصَّهم جنفٌ وقشفٌ فما بقي معهم ذرّة من الراحة. ثم يقولون نحن سُراةُ أنديةِ الأدب، وحُماةُ لُسْن العرب. كلا.. بل ركدتْ ريحهم، وخَبَتْ مصابيحهم، وأجدبت بُقْعتُهم، وتخلّى بعد الإخلاء مُنتجعُهم ونُجعتُهم، ولن يُرَدّ إليهم جلالة شأنهم حتى يردّوا أنفسهم إلى الحضرة، ولن يغيّر ما بهم حتى يغيّروا ما في الطويّة. ولو أن ما في الأرض أنصارًا لهم ما كان لهم أن يُعجزوا المرسلين، ولو أتوا بالأوّلين والآخرين، مِن دون المتّقين. ألا ينظرون إلى الذين خلوا من قبلهم، هل هم غلبوا وأعجزوا رسل الله؟ أو كانوا من المغلوبين؟

ألا إن الأقلام كلها لله، وهي معجزة من معجزات كتاب مبين، ثم يتلقّاها المقرَّبون على قدر اتّباع خير المرسلين. فإن المعجزاتِ تقتضي الكراماتِ، ليبقى أثرها إلى يوم الدين. وإن الذين ورثوا نبيّهم يُعطَون مِن نِعمه على الطريقة الظلّية، ولولا ذلك لبطلت فيوض النبوّة، فإنهم كأثرٍ لعينٍ انقضى، وكعكسٍ لصورة في المرآة يُرَى، وإنهم اكتحلوا بمِرْوَدِ الفناء، وارتحلوا من فِناء الرياء، فما بقي شيء من أنفسهم وظهرت صورة خاتم الأنبياء، فكل ما ترون منهم من أفعال خارقة للعادة، أو أقوال مشابهة بالصحف المطهّرة، فليست هي منهم بل مِن سيدنا خير البريّة، لكن في الحُلل الظلّية. وإن كنتم

في ريب من هذا الشان، لأولياء الرحمان، فاقرأوا آية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإمعان. أتعجبون ولا تشكرون؟ وترون صوركم في المرايا ثم لا تُفكّرون؟

ألا إن لعنة الله على الذين يقولون إنّا نأتي بمثل القرآن. إنه معجزة لا يأتي بمثله أحدٌ من الإنس والجان. وإنه جمع معارف ومحاسن لا يجمعها علم الإنسان. بل إنه وحيٌ ليس كمثله غيره وإنْ كان بعده وحيا آخر من الرحمان، فإن لله تجلّياتٍ في إيحائه، وإنه ما تجلّى من قبل ولا يتجلّى من بعد كمثل تجلّيه لخاتم أنبيائه. وليس شأن وحي الأولياء كمثل شأن وحي الفرقان، وإنْ أُوحِيَ إليهم كلمة كمثل كلمات القرآن، فإن دائرة معارف القرآن أكبر الدوائر، وإنها أحاطت العلوم كلها وجمعت في نفسها أنواع السرائر، وبلغت دقائقُها إلى المقام العميق الغائر، وسبَق الكلَّ بيانًا وبرهانا، وزاد عرفانا. وإنه كلام الله المعجز ما قرع مثله آذانا، ولا يبلغه قول الجنّ والإنس شأنا. فمَثل القرآن وغيرِ القرآن كمثل رؤيا رآها مَلِكٌ عادل رفيع الهمّة كامل الفهم والقياس، ورأى هذه الرؤيا بعينها رجل آخر قليل الفهم قليل الهمّة ومن عامّة الناس، فلا شكّ أن رؤيا المِلك ورؤيا هذا الرجل وإنْ كانت واحدة غيرَ مميّزة في ظاهر الحالات، ولكن ليست بواحدة عند عارفِ تعبير الرؤيا وذي الحصاة، بل لرؤيا

الملِك العادل تعبير أعلى وأرفعُ وأعمّ وأنفع، وهي للناس كلهم خير ومع ذلك أصحُّ وألمعُ، وأمّا رؤيا رجل هو من أدنى النــاس، فــلا يتخلّص في أكثر صورها من الالتباس، بل من الأدناس، ثم مع ذلك لا تجاوز أثرها من الأبناء والآباء، أو شرذمة من الأحبّاء. وإنّ ركْبَ هؤلاء الأغيار، يُنيخون بأدنى الأرض مطايا التسيار، وينتقلون مــن الأكوار إلى الأوكار، وأمّا خيل الفرقان، فيجوبــون كــل دائــرة العمران، وهو كتاب تجري تحته بحار العرفان، ولا يطير فوقه طــير التبيان. وما تكلّم أحد إلا ادّانَ مِن خزائنه، وأخــرج مِــن بعــض دفائنه. وأرى كلَّ متكلّم صفرَ اليدين، مِن غير التطوّق بهذا الــدَّيْن. وكلُّ غريم يجدّ في التقاضي، ويلجّ في الافتياد✵ إلى القاضي، وأمّــا القرآن فيتصدّق على أهل الإملاق، وينــزع عن الإرهاق، بل يُعطي سبائك الخِلاص، لأهل الإخلاص، ولا يمنّ على الغرماء بالإنظار، بل يُرغِّبهم في احتجان النُضار، ولا يأخذ سارقا، إنْ كان فارقًا●.

وإنّا نحن تلاميذ الفرقان، وأُترِعْنا مِن بحــره بعــد مــا صــرنا كالكيزان. فإنْ كان مدير "المنار" تزرَّى عليّ لهذا الاعتذار، فنــدعو

✵ *سهو على ما يبدو، والصحيح: الاقتياد (الناشر).*

● **الحاشية:** أعني مَن اقتبس من القرآن آية بصحّة النيّة، خائفًا من الحضرة، فلا إثم عليه عند عالِم النيّات، ذي الجود والمنّة. منه.

له لِغَيرته لله الغيورِ الغفّار، ولو قمتُ على مقامه، لقلتُ كمثل كلامه. ولعنةُ الله على مَن أنكر بإعجاز القرآن وجوهرِ حُسامه، وتفرُّدِ دُرّةِ كَلِمِه ونظامِه. ووالله إنّا نشرب من عينه، ونتزين بزينه، ولذلك يسعى على كلامنا نور وصفاء، وفي نُطقنا يبهر لمعانٌ وضياء، وبركة شفاء●، وطلاوة وبهاء. وليس عليّ منّةُ أحدٍ من غير الفرقان، وإنّه ربّاني بتربية لا يضائها◈ الأبوانِ. وسقاني الله به مَعينا، ووجدناه منيرا ومُعينا، فلا نعرف التهابا ولا حرورا، وشربْنا من كأس كان مزاجها كافورا.

وإن كلامي هذا ليس من قلمي السقيم، بل كَلِمٌ أُفصحتْ مِن لدنْ حكيم عليم، بإفاضة النبي الرؤوف الرحيم، فلا تجعلوا رزقكم أن تكذّبوها بل فكّروا كالزكيّ الفهيم. أم ظننتم أن الله لا يعلم ما تعلمون؟ أو لا يقدر على ما تقدرون؟ كلا، بل لا تعرفونه حق المعرفة وتستكبرون. واللهُ يجعل لمن يشاء بسطةً في العلم أفلا تُفكّرون؟ وقد كنتم على شفا حفرة فرحمكم الله، أفلا تشكرون؟

● يبدو أن "و" سقطت هنا سهوا، والصحيح: وشفاء (الناشر).

◈ سهو على ما يبدو، والصحيح: يضاهيها (الناشر).

ما بال المسلمين؟
وما العلاج في هذا الحين؟

ظهر الفساد في المسلمين، وصارت ككبريتٍ أحمرَ زُمَرُ الصالحين. ما ترى فيهم أخلاق الإسلام، ولا مواساة الكرام. لا ينتهون من التخليط ولو بالخليط، ويجرّعون الناسَ من الحميم، ولو كان أحد كالوليّ الحميم. ولا يكافئون بالعشير، ولو كان أخ أو من العشير. لا يصافون شفيقا ولا شقيقا، ويستقِلّون جزيلَ المواسين، ولا يُحسنون إلى المحسنين. ويخيّبون الناس من عوارف، ولو كانوا من معارف. ويبخلون بما عندهم مَرافقهم، ولو كان مُرافقَهم، بل إذا أجلتَ فيهم بصرك، وكرّرتَ في وجههم نظرك، وجدت أكثرَ طوائف هذه الملّة، قد لبسوا ثياب الفسق وترك الديانة والعفّة. وإنّما نذكر ههنا نُبذًا من حالات ملوك زماننا وغيرهم من أهل الأهواء، ثم نكتب بعده ما أراد الله لدفع تلك المفاسد وتدارُكِ الإسلام والمسلمين من السماء.

في حالات ملوك الإسلام في هذه الأيام

اعلمْ، رحمك الله، أن أكثر طوائف الملوك وأولي الأمر والإمـــرة، الذين يُعَدّون مِن كبراءِ هذه الملّة، قد مالوا إلى زينة الدنيا بكل الميل والهمّة، واستأنسوا بأنواع النعم واللُّهْنيّة، وما بقي لهم شغل من غير الخمر والزمر والشهوات النفسانية. يبذلون خزائن لاستيفاءِ اللذّات الفانية، ويشربون الصهباء جهرةً على شاطئ الأنهار المصرّدة والميـــاه الجارية، والأشجار الباسقة، والأثمار اليانعـــة، والأزهـــار المنـــوّرة، جالسين على الأنماط المبسوطة، ولا يعلمون ما جرى على الرعيّـــة والملّة. ليس لهم معرفةٌ بالقانون السياسي وتدبيرِ مصالح الناس، ومـــا أُعطيَ لهم حظ من ضبط الأمور والعقل والقياس. والذين يُتخيَّرون لتأديبهم في عهد الصبا، فهم يرغّبونهم في الخمر والزمر وعلى منادمةٍ على الرُبى، سيّما في أوقات المطر وعند هزيز نسيم الصبا. كـــذلك يقرُبون حرماتِ الله ولا يجتنبون، ولا يؤدّون فـــرائض الولايـــة ولا يتّقون، ولذلك يرون هزيمة على هزيمة، وتراهم كل يوم في تنــــزُّل ومنقصة؛ فإنهم أسخطوا ربّ السماء، وفُوِّضَ إليهم خدمة فما أدّوها

حق الأداء. أتزعمون أنهم خلفاء الإسلام؟ كلا، بل هم أخلدوا إلى الأرض وأنَّى لهم حظّ من التقوى التام؟ ولذلك ينهزمون مِن كل مَن نهض للمخالفة، ويولّون الدبر مع كثرة الجند والدولة والشوكة، وما هذا إلا أثرُ السخط الذي نزل عليهم من السماء، بما آثروا شهواتِ النفس على حضرة الكبرياء، وبما قدّموا على الله مصالح الدنيا الدنيّة، وكانوا عظيم النهمة في لذّاتها وملاهيها الفانية، ومع ذلك كانوا أُسارى في ذميمة النخوة والعُجْب والرياء، الكسالى في الدين والفاتكين في سبل الأهواء. فكيف يُعطى لسَقَطٍ جُلَّى ومكرمة؟ وكيف يوهب لفُضلةٍ فضيلةً ومرتبة؟ فإنهم بسَأوا بالشهوات، ونسوا رعاياهم ودينهم وما أدّوا حقّ التكفّل والمراعاة. يحسبون بيت المال كطارفٍ أو تالدٍ ورثوه من الآباء، ولا ينفقون الأموال على مصارفها كما هو شرط الاتّقاء، ويظنّون كأنهم لا يُسألون، وإلى الله لا يُرجعون. فيذهب وقتُ دولتهم كأضغاث الأحلام، والفيءِ المنتسخ من الظلام. ولو اطّلعتَ على أفعالهم لاقشعرّت منك الجلدة، واستولت عليك الحيرة. ففكِّروا.. أهؤلاء يشيّدون الدين ويقومون له كالناصرين؟ أهؤلاء يهدون الضالّين، ويعالجون العمين؟ كلا، بل لهم أغراض دون ذلك، فهم يعملون بها مصبحين وممسين. ما لهم ولأحكام الشريعة، بل يريدون أن يخرجوا مِن رِبْقتها ويعيشوا

بالحرّية. وأين لهم كالخلفاء الصادقين قـــوة العزيمـــة، وكالأتقيـــاء الصالحين قلب متقلّب مع الحق والمعدلة؟ بل اليوم سُرُرُ الخلافة خالية من هذه الصفات، وأُلقيَ عليها أجساد لا أرواح فيها بل هـــي أردأُ من الأموات. وإنّ وجودهم أعظم المصائب علـــى الإســـلام، وإن أيامهم للدين أنحسُ الأيام. يأكلون ويتمتّعـــون، ولا ينظـــرون إلى المفاسد ولا يحزنون. ولا يرون الملّة كيف ركدت ريحها، وخبـــتْ مصابيحها، وكُذّب رسولها، وغُلّط صحيحها، بل تجـــد أكثـــرَهم مصرّين على المَنهيّات، المجترئين على سَوْق الـــشهوات إلى سُـــوق المحرّمات، المسارعين بنقل الخطوات إلى خطط الخطيّات، المتمـــايلين على الغِيد والأغاريد وأنواع الجهلات، المصبحين في خُـــضُلّة مـــن العيش والممسين في أنواع اللذّات. فكيف يُؤيَّدون من الحضرة، مع هذه الأعمال الشنيعة والمعصية؟ بل مِن أول أسباب غضب الله على المسلمين وجودُ هذه السلاطين الغافلين المترفين، الذين أخلـــدوا إلى الأرض كالخرّاطين، وما بذلوا لعباد الله جُهْدَ المـــستطيع، وصـــاروا كظالعٍ وما عَدَوا كالطِرْف الضليع، ولأجل ذلك ما بقـــي معهـــم نصرةُ السماء، ولا رعبٌ في عيون الكَفَرة كما هو مـــن خـــواص الملوك الأتقياء، بل هم يفرّون من الكَفَرة، كالحُمُر من القَـــسْورة، وكفى لألفٍ منهم اثنان في موطن الملحمة. فما سببُ هذا الجـــبن

وهذا الإدبار، إلا عيشة التنعّم والإتراف كالفُجّار. وكيف يُعْضَدون بالنصرة والإعانة، مع هذه الغواية والخيانة؟ فإن الله لا يبدِّل سنّته المستمرّة. ومِن سنّته أنه يؤيّد الكَفَرةَ ولا يؤيّد الفَجَرة، ولذلك ترى ملوكَ النصارى يؤيَّدون ويُنصَرون، ويأخذون ثغورهم ويتملّكون، ومِن كل حدَبٍ ينسلون. وما نصَرهم الله لرحمته عليهم، بل نصرهم لغضبه على المسلمين لو كانوا يعلمون. وكيف أُظْهِرَ عليهم أعداؤُهم إنْ كانوا يتّقون؟ بل لما تركوا الدعاء والتعبّد، ما عَبَأَ بهم ربهم فهم بما كسبوا يُعذَّبون. وإنّ شرّ الدوابّ قوم فسقوا بعد إيمانهم، ويعملون السيئات ولا يخافون. فبما نكثوا عهد الله ونقضوا حدود الفرقان، طوّحتْ بهم طوائح الزمان، وخرج من أيديهم كثير من البلدان، وأَنْأَتْهم غفلتُهم عن حقوقهم، وضُربت عليهم خيام أهل الصلبان، نكالاً من الله وأخذًا من الدّيّان. إنهم بارزوا الله بالمعصية، فوَلَّوا الدبر من الكَفَرة. وما أخزاهم عِداهم، ولكن الله أخزاهم، فإنهم عصوا أمام أعين الله فأراهم ما أراهم، وتركهم في آفات وما نجّاهم.

ووزراؤهم قوم مغشوشون، يأكلون أموالهم ولا يخلصون. لا يمنعونهم من التعامي والتصابي، ويُغمضون لهم كالفَطِن المتغابي، وينضحون عنهم كالمداهن المُحابي. وإنهم قِسمانِ: قسم كالعقارب

وقسم كالنسوان، أو نقول بتبديل البيان: قسمٌ كغُمْرٍ جاهل ما أُعطيَ لهم حظ من العرفان، وقسمٌ كذي غِمْر متجاهل لا يريدون إلا هلاك ملوكهم كالشيطان. يرون سلاطينهم يقرُبون حرماتِ الله ومناهيَ الشرع، ثم يندِّدون بأنه من المباحات وليس مما يخالف طريق الورع. ويزيّنون في أعينهم أمرًا هو أقبحُ السيئات، ويريدون أن يجعلوهم كالعجماوات بل الجمادات. ولا يخرج من أفواههم قول يقرب الصدق والصواب، ولا يبغون في أنفسهم إلا الهلاك والتباب. لا يذاكرون ملوكهم بما هو خير لهم في هذه ويوم المكافاة، بل يتركوهم كالسباع المفترسة والحيَوات، ويسعون في كل وقت من الأوقات، أن يَنْبَأَ سمعُهم عن أوامر الله وسننِ خير الكائنات. ولا يخوّفوهم من عواقب الغفلة، ولا يؤثّموهم عند ارتكاب المعصية. فهل هم بهذه السيرة لهذه الملوك إلا كحُفرة للرِجْلين المتخاذليْن؟ أو كوقود لنار أو كغشاوة على العينين؟ لا يُطفئون أُوارهم، بل يحمدون عثارهم، ولذلك صارت ملوكهم غرضًا لحصائد الألسنة، وسُمُّوا قوما كسالى في الجرائد المغربية، بل أجمعَ أهل الرأي من النصارى، نظرًا على هذه الحالات، على أن أيامهم أيام معدودة

وسيزول أمرهم وإمرتهم في أسرع الأوقات. وإذا هلك سلطان الروم♦ مثلاً فلا سلطان بعده عند هؤلاء الذين رموا أحجار الآراء. واللهُ يعلم ما كتمه وما يفعله رأيٌ في الأرض ورأيٌ في السماء. فمن ذا الذي ينبّه هؤلاء، ومَن يوقظ النائمين ويُخبرهم مِن هذا البلاء؟

ولا شك أن أكثر هذه الملوك أسرفوا على أنفسهم وجاوزا الحدّ في التنعم واللُّهنيّة، وجعلوا نفوسهم رهينة الفسق والكسل والمعصية. لا يزالون يبغون غانية من النساء، ويستقْرون حيلة لوصالها ولو بالفحشاء، ويبذلون بَدْرةً لو نزل البدر من السماء. تفانت قواهم من الفسق والفجور، وذهبت نَضرتُهم ونُضارهم في فكر النسوة والقصور. وترى كثيرا منهم خلتْ صُرّهم، وسرتْ مسرّهم، وبُدِّلَ بالخطر خطرتُهم، وضاعت لامرأةٍ إمْرتُهم، وظهر قترُ الفقر بعد ما أُودعَ سرُّ الغنى أسرّتَهم، وحسر بصرهم من الحزن ودامت حسرتهم، ومع ذلك لا يتركون الشهوات، والشهواتُ تتركهم بالشيب والأمراض والآفات. ولا يتّقون شططًا وغلوًّا في استيفاء الحظوظ كالفَجرة، حتى ينجرَّ الأمر إلى تلاشي الصحّة واختلال البِنية، وتزهق أنفسهم وهم يتمنّون أن تعود أيام الصحّة والقوّة.

♦ *أي السلطان التركي (الناشر).*

كأنهم وقفوا أبدانهم وقواهم على البغايا، وآثروا حبّهن على عصمة النفس والعرض والملّة. إن هؤلاء قوم صاروا للشيطان كفَيْءٍ، وليسوا من الخير في شيءٍ. ترى طبائعَهم كأرض ذات كُسور غيرِ المسحاء، متلوّنة في الصباح والمساء، وترى قلوبهم مظلمة من الكبر والخيلاء، كأنها هزيع من الليلة الليلاء. يفرحون بمرابط مملوّة مِن طِرْفٍ وبِغال، وبقر وجِمال، أو نساء ذات بهاء وحسن وجمال، ولا يتعهّدون فرائضهم ولا يخافون يوم ارتحال، وساعةَ أخذٍ وسؤال. ويُنفِدون يومهم في الزينة والمشط والاكتحال، وما بقي فيهم سيرة من سير الرجال. وإذا رأيتهم بذَأْتَهم وحسبتَهم نساءَ الأسواق، أو عبيدًا زُيّنوا للبيع بعد الاسترقاق. لا يداومون على الصلاة، وصارت أهواؤهم في سبلهم كالصلات، وإنْ صلّوا فيصلّون في البيوت كالنساء، ولا يحضرون المساجدَ كالأتقياء. وكيف وإنهم لا يفارقون كأس الصهباء، ولا يتركون أدناس الندماء، ولا يطيقون أن يسمعوا من الوعظ كلمة، فيأخذهم عزّةٌ كبرًا ونخوة، ويتوغّرون غضبا وغيرة. ويكون أكرمُ الناس عندهم مَن زيّن لهم حالهم، وحمدهم وأعمالهم. وكذلك فسدت أخلاقهم مِن مداومة المُدام، واستأصلتهم شجرةُ الكرْم مع كونهم من أبناء الكرام. ما بقي هِممُهم مِن غير أن يكون لهم قصر منيف، وغذاء لطيف، وشراب حرّيف، وما سُمع

منهم تطريف، ولذلك لَحِقَهم وبالٌ وخسران، وجُزّوا كما يُجَز ضانٌ، وقُضّبوا كما تُقضَّب أغصان، وأُخِذوا كما يؤخذ دابّة، وقُطعوا كما يُقطع قضابة، وسقطوا مِن ذرَى دولةٍ وإمارة، كما يسقط ثوب مِن كارةٍ بغرارة.

ولما رأى الله فسقهم وفجورهم، وظلمهم وزورهم، وبطرهم وكفورهم، سلّط عليهم قومًا يتسوّرون جدرانهم، وكلَّ ما علا يتسلّقون، ومما ملَكه آباؤهم يتملّكون، ومِن كل حدَبٍ ينسلون. وكان ذلك أمراً مفعولا وأنتم تقرأونه في القرآن ولكن لا تفكّرون، وقفّى على آثارهم بقسوس فهم يُضلّون الناس ويخدعون، ويرغّبونهم في دينهم الباطل بمال ونساء وبكل ما يزيّنون، فيبيع السفهاءُ دين الله برغفانٍ ونسوان وأماني أخرى كما أنتم تنظرون. والإثم كله على الملوك بما لم يصلحوا أمر رعاياهم وما رأوا مفاسدهم بوَبْلةٍ وكانوا لا يبالون. فقُلّبت أمور دنياهم بما قلّبوا تقوى القلوب، وكانوا على المعاصي يجترئون. وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ولا هم يُرحمون، بل الله يلعن بيوتًا يفسق الناس فيها وبلادا فيها يجترمون، وتنزل الملائكة على دار الفسق والظلم ويقولون: ما عمّركِ الله يا دارُ، وخرَّبك يا جدار، وينزلُ أمرُ الله فيهلكون.

ويُحدِث الله سببًا لهدم تلك الحيطان، وتخريب تلك البلدان، فيأتي قوم فيهُدّونها من أساسها وكذلك يفعلون.

فلا تسبّوا ملوك النصارى ولا تذكروا ما مسَّكم مِن أيديهم ولا تلوموا إلا أنفسكم أيها المعتدون.

أتسمعون ما أقول لكم؟ كلا، بل تعبسون وتشتمون. وأَنَّى لكم آذان تسمع وقلوب تفهم، وأين لكم الفراغ أن تَنقلّوا من الأكل إلى العقل، وإلى الدَيّان من الدِنان، وأين فيكم فتيان يتذكّرون؟ أتسبّون أعداءكم وما نالكم إلا جزاءُ ما كنتم تكسبون.

واعلموا أنكم إن كنتم صالحين لأصلحَ الملوك لكم، وكذلك جرت سُنّة الله لقوم يتّقون. وانتهوا من إطراء ملوك الإسلام واستغفِروا لهم إن كنتم تنصحون. ولا تتقدّموا إليهم بموائد فيها سمٌّ فيأكلون ويموتون. وأنتم تعيشون معهم في رخاء وتغترفون من فُضالتهم، فإنْ مسَّهم ضرٌّ فكيف تُعصَمون؟ وإنهم ملكوا رقابكم وأعراضكم وأموالكم، فانصحوا للذين يملكون. وقد جعلهم الله لكم كمُعِدّات، وجعلكم لهم كآلات، فتعاونوا على البر والتقوى إن كنتم تخلصون. ونَبِّهوهم على سيئاتهم، وأَعثِروهم على هفواتهم، إن كنتم لا تنافقون.

ووالله إنهم قوم لا يؤدّون حقوق عباد أُمِّروا عليهم ولا يحافظون الفرائض ولا يتعهّدون. وتعرفونه بوجه أكسَفَ مِن بالهم وزيٍّ أوحشَ من حالهم، كأن بواطنهم مُسخت، وكأنهم أُنشِئوا في ما لا يعلمون. وتالله إنّا نرى أن قلوبهم قاسية بل أشدّ قسوةً من أحجار الجبال، وإنّ طبائعهم متوقدة ولا كالنمور وأفاعي الدِحال، وإنهم قوم لا يتضرّعون. فثبت من هذه الأفعال والأعمال، أنهم أسخطوا ربهم واختاروا طرق الضلال، وأكلوا سمًّا زعافًا ثم أشركوا فيه رعاياهم فلهُمْ سهمانِ من الوبال: يرِدُون جهنم ويُورِدون. وكل ما نزل على الإسلام فهو نزل مِن سوء أعمالهم وفساد الأفعال. فهل فيكم رجل يُفهِّمهم نتائج هذه الخصال، أيها المتكلّمون؟ فإنهم قوم ضيّعوا دينهم للأهواءِ والأعمال، وصاروا كأحولَ في جميع الأحوال، بل أراهم عُمْيًا لا يبصرون.

ولا أقول لكم أن تخرجوا مِن رِبقتهم وتقصدوا سبيل البغاوة والقتال، بل اطلبوا صلاحهم من الله ذي الجلال لعلهم ينتهون. ولا تتوقّعوا منهم أن يُصلحوا ما أفسدت أيدي الدجّال، أو يقيموا الملّة بعد تهافُتها وبعد ما ظهر من الاختلال، ولكلّ موطنٍ رجال كما تعلمون، وهل يُرجى إحياء الناس من الميّت أو الهداية من الضال، أو المطر من الجَهام، أو الولوج في سَمّ الخياط من الجِمال؟ فكيف منهم

تتوقعون؟ وتالله إنّا لا نتوقّع صلاحهم حتى يـــوقظهم الاحتـــضار، ولكن نُدِب إلينا الإذكار، وإنّا لا نحسبهم إلا كطير محلّق لا يُصاد، أو كعُمُرٍ لا يُستعاد، أو كخفافيش خربتْ منها البلاد، أو كبلدة ما أصابها العِهاد، أو كظلٍّ غيرِ ظليل لا تأوي إليه العبـــاد، أو كـــسمٍّ قُطّعتْ منه الأكباد. عظُمتْ صدمةُ عثرتهم، وما أرى مَن يُقِلُّهم من صرعتهم. تراءَوا كحطب لا كأشجار ذات الثمار، والحطبُ لا يليق إلا للنار. فقدوا قوّة الفراسة، وأصول السياسة، وأرادوا أن يتعلّمـــوا مكائد جيرانهم من النصارى، فما بلغوهم في دقائق الدساسة وحيلِ الحراسة، فمثلهم كمثل دِيكٍ أراد أن يضاهي النـــسر في الطـــيران، فزايلَ مركزَه وما بلغ مقام النسر، فخرَّ لاغبًا فلقَفه صقر في الميدان. هذا مثل ملوك الإسلام بمقابلة أهل الصلبان. أعرضوا عمّا عُلّموا من وصايا الاتّقاء، وما كملوا في المكائد كالأعداء، فبقوا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء. وقد كتب الله لملوك دينه أن لا ينصرهم أبدًا إلا بعد تقواهم، وأراد للنصارى أن يجعلهم فـــائزين بمكـــرهم إذْ أســـخط المؤمنون مولاهم. ومن سوء القدر أنّا لا نرى في هذه الأيام ملـــوكَ الإسلام، قائمين على حـــدود الله العـــلّام، لا في أنفـــسهم ولا في الأحكام، بل ما بقي فيهم إلا نهمةُ عشرين لونًا من القلايا، وسبعين حسناء من المحصنات أو البغايا، ولا يعلمون ما فـــصلُ القـــضايا.

أتحسبون سريرهم حِمى الأمنِ، وما بقي هو إلا كالدِمَن؟ أتظنّون أنهم يحفظون ثغور الإسلام من الكَفرة؟ كلاّ.. بل هم يدعونهم بأيدي الغفلة، ليتملّكوا ما بقي من أطلال الملّة. أتزعمون أنهم كهف الإسلام؟ يا سبحان الله! ما أكبرَ هذا الغلطَ! وإنّما هم يجيحون ببدعاتهم دينَ خير الأنام. ولكم أن تُحسنوا الظن فيهم وتنزّهوهم عن السيئات، ولكن بأي العلامات؟ أتخالون أنهم يحفظون حرم الله وحرم رسوله كالخدّام؟ كلا.. بل الحرم يحفظهم لادّعاء الإسلام وادّعاءِ محبّةِ خير الأنام. وقد حُقّت العقوبة لو لم يتوبوا إلى الله المقتدر العلاّم. فمَن فيكم يذكّرهم بأيام الله ويخوّفهم من سوء الأيام؟ ألا ترون أن الإسلام قد تكسّرَ مِن دهرٍ هاض، وجَورٍ فاض، وأن الفتن مطرت عليه ولا كمطر الوابل، وقام لصيده أفواج العِدا كالحابل، وما بقي شيء تسرّ القلوب، وتدرأ الكروب، وظهر المسلمون كعَطاشى في فلوات، وكمثلِ مرضى عند سكرات، وما بقي فيهم إلا رمقُ حياة، أو قطرة من فرات، أو قشرة من ثمرات. وإنهم قد ابتُلوا بأنواع أمراض، وأقسام أعراض، وفسد ما ظهر وما بطن، ووهن مَن جهل ومَن فطن، وتعامى من تغرّبَ ومن قطن، وغابت الأيام الغُرّ، ونابت الأحداث الغُبْر، وغُيّر الدين وقرُب إلى تلفٍ، وصار بحره كجلف، وآثرَ الناسُ على الصدق الأراجيفَ،

وعلى القصر المنيف من الحق الكنيفَ، ولما ضلوا ما بقــي معهــم دنياهم وآنسوا التكاليف، وودّعوا مع توديع الصرف والعدل الذهبَ والصريفَ، وهذا أمر لا يخفى على ابن الأيام، والمطّلعِ علــى نــار تضرمتْ في الخواص والعوام. فاليوم ليالي المسلمين مُحاق، وعليهــا من النظّارة أطواق، ومِن الزحام أطباق، فقوم يمرّون على المــسلمين ضاحكين، وآخرون ينظرون إليهم باكين. وترون أن القلوب قست، والذنوب كثرت، والصدور ضاقت، والعقول تكــدّرت، وعمّــت الغفلةُ والكسل والعصيان، وغلبت الجهالة والضلالة والطغيان، وما بقي التقوى وخطَفه الشيطان، ولم يبق في القلوب نور يقوى منــه الإيمان، ونَجَسَ الأبصارُ والألسن والآذان، وفسُدت الاعتقــادات، وسُلبت الدرايات، وظهرت الجهلات والعمايات، ودخل الريــاء في العبادة، والخيلاء في الزهادة، وظهرت الــشقاوة، وانتفــت آثــار السعادة، ولم يبق التحابب والاتفاق، وظهر التباغض والشقاق. وما بقي ذنب ولا جهالة إلا وهو موجود في المسلمين، ولا ضــيم ولا ضلالة إلا وهو يوجد في نسائهم والرجال والبنين، سيّما أمــراؤهم تركوا الصراط أو قعدوا أو مشوا كالذي عَرَجَ، وترى بعضهم أظلمَ ممّن دبَّ ودرَجَ، وعُرِضَ عليهم أمر الله فسكتوا كأخرسَ، وصاروا أوّل من كفر بالحق وتدلّسَ. ولــذلك أُخِــذَ النــاسُ بالطــاعون

والعجماوات بالموتان، وظهرت الآيات فما قبلوها فنزل سخط الرحمان. ولما رأوا العذاب قالوا إنّا تطيّرْنا بك وبكذبِك جاء الطاعون. قيل طائرُكم معكم أئنْ ذُكّرتم بل أنتم قوم مسرفون. وما أرسل الله من رسول إلا وأُرسلَ معه عذاب من السماء والأرض لعلهم يرجعون. وكذلك كان النَغَفُ في زمن المسيح عذابا مؤقتا، وإنّ في ذلك لآية لقوم يتدبّرون.

ألا ينظرون كيف حفظ الله هذه القرية، وصدّق وعده وجعلها أرضا آمنة، ويؤخذ الناس من حولها، إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون. ألا ينظرون كيف أرى الطواعينُ نواجذها في قُرًى أخرى، وأوى الله إليه هذه القريةَ ليتمّ وعدًا أُشيعَ مِن قبل في الورى، ومَن أصدقُ من الله قيلا؟ ففكّرْ إن كنتَ بالتقوى تتحلّى. ووالله إنها آية عظمى لأناس يُبصرون، فاسألوا الذين رأوها ويرونها إن كنتم لا تعلمون. ولا تتّبعوا شياطينكم وتوبوا إلى الله أيها المكذّبون. ألا تتنبّهون وقد صُبّت المصائب عليكم وعلى ملوككم أيها المعتدون؟ وظهر الإدبار، وما بقي لهم العيش النضير ولا النُضار. وترى أكثرَهم باديَ المتربة كماءِ يغور أو كرجل يُغار. ثم صالت عليهم طوائف القسوس، في اليوم المنحوس، فدخل كثير من الناس في الملّة النصرانية، وصاروا أعداءَ الله وأعداءَ رسوله خيرِ البريّة. فأرُوني أيّ

مِلِكٍ من ملوككم صنع فُلْكًا عند هذه الطوفان؟ بل أُغرقوا مع المغرَقين، وقلَّم أظفارَهم مقراضُ الزمان، ورهَق وجوهَهم القترُ، وانتزف ماءَهم الدهرُ، وفارقَهم الإقبال، واحتالوا فما نفعهم الاحتيال، وظهرت فتن ما كانوا أن يُصلحوها بالشورى والمنتدى، ولا بتجمير البعوث على ثغور العِدا، وربما تقلّدوا أسلحة، وبعثوا جنودًا مجنّدة، فما كان مآلهم إلا الخزي والهزيمة، والهوان والذلة العظيمة. وما نفع وجودُهم الشريعةَ الغرّاء، بل تدثّرَ الإسلامُ ظالعًا ذا عدواء، في أرضٍ متعاديةٍ مَواتٍ مَرْداءَ، بما كان الملوك في سجن الأهواء كالمحبوس، وعَبَدةَ نار الشهوات كالمجوس. ومَن كان راتعًا في الأجمة الشيطانية، ما له وللرياض الرحمانية؟ فأرى الدينَ في زمنهم كمثل جسمٍ ثارت به من الداخل حصبةٌ ودماميلُ وأنواع البثرات، وجرَحه من الخارج كثير من المُدى والقنا والمرهفات، وأُجْبِئَ زرعُه المخصبُ، وأُحرِق عذيقه المرجّب، وكان في زمان كحديقة ترتع النواظر في نواضرها، ويُصقَل الخواطرُ بشيمِ مواطرها، وأمّا اليوم فهو كشجرة اتخذت الخفافيشُ أوكارَها في أظلالها، وكعين ما بقيتْ قطرة من زلالها، واشمعلّت للرحل كلُّ شوكة وبركة كانت في هذا الدين، وما بقي إلا قصص من الآيات وقشرة من الكتاب المبين،

وتراه كدارٍ مات صاحبها، وقامت نوادبها، وهُدم جدرانها، وزُلزل بنيانها.

فانظروا ماذا ترون طرق المداواة يا طوائف الأُساة؟ أتجدون هؤلاء الأمراء، يدفعون تلك البلاء؟ أتتوقّعون من هذه الملوك، أنهم يطهّرون حديقة الدين من تلك الشوك؟ أو تزعمون أن هذه الأمراض تُبرَأُ مِن الدول الإسلامية وبجهدهم المعلوم؟ كلا، بل هو أمرٌ أعسرُ مِن أن تتوقعوا الرطب الجنيّ من الزقّوم، وكيف وهم في غشية الوجوم؟ وكيف يرفعون رأسهم وهم تحت ألوف من الهموم؟ والحق والحق أقول.. إن هذه آفاتٌ ليس دفعُها في وسع الملوك والأمراء. أيهدي الأعمى أعمى آخر يا ذوي الدهاء؟

ثم إن هذه الملوك، وإنْ كانوا من المسلمين، أو من المخلصين المواسين، ولكن ليست نفوسهم كنفوس الكاملين المطهَّرين، وما أُعطيَ لهم نورٌ وجذبٌ كالمقدَّسين، فإن النور لا ينزل قط من السماءِ إلا على قلب أُحرِقَ بنيران الفناء، ثم أُعْطِيَ مِن حبّ شغفه وغُسِلَ مِن عين الرضاء، وكُحِّلَ بكحل البصيرة والصدق والصفاء، ثم كُسِيَ مِن حُلل الاجتباءِ والاصطفاء، ثم وُهِبَ له مقام البقاء. وكيف يُزيل الظلمة مَن هو قاعد في الظلمات؟ وكيف يوقِظ مَن هو نائم على أرائك اللذّات؟ والحق أن ملوك هذا الزمان ليست لهم

مناسبةٌ بالأمور الروحانية، وقد صرَف الله هِممهم إلى السياسات الجسمانية، ونصبهم بمصلحة من عنده لحماية قشرة الملّة، وقيّد لحظهم بالأمور السياسية، فما لهم ولِلُّبِّ والحقيقة. وليست فرائضهم أزيدَ من أن يحسنوا الانتظام لحفظ ثغور الإسلام، ويتعهدوا ظواهرَ المُلك ويعصموه من براثن الأعداء اللئام، وأمّا بواطن الناس، وتطهيرها من الأدناس، وتنجية الخلق من شر الوسواس الخنّاس، وحفظُهم من الآفات بعقد الهمّة والدعوات، فهذا أمرٌ أرفعُ من طاقة الملوك وهِممهم كما لا يخفى على ذوي الحصاة. وما فُوّضَ زمام المُلك إلى أيدي السلاطين، إلا لحفظ الصور الإسلامية من بطش الشياطين، لا لتزكية النفوس وتنوير العمين. فما كان مبلغ جهدهم إلا أن تدفع إليهم الخراج بالجبر أو التراضي، ويُرتَّب الديوان الذي تُحصى فيه مقادير الأراضي، وأن تُهيَّأ جنود بحذةِ عساكر الأعداء، وأن ينصَّب فوج للسياسات الداخلية وفصلِ الأحكام والقضاء والإمضاء. فإنْ تطلبوا منهم خدمةَ إصلاح النفوس، وتهذيبِ الأخلاق والتنجية من أوهام القسوس، فذلك أمر أرفعُ مِن هممهم ودهائهم، ومنارٌ أسنى مِن بنائهم، بل هم قوم مشتغلون بالإصلاح المادّي والسياسي، فما لهم وللإصلاح العلمي والعَملي؟

فحاصل الكلام أن الملوك والأمراء لا يقدرون على أن يزيلوا الأهواء، وكيف يهدون غيرَهم وهم يمشون كناقةٍ عشواء، وكيف يُتَوقَّع مِن قلب زائغ أن يقوّم نفسًا ذاتَ عَدْواء، وأن يُسعِد الأشقياء، وأن يأخذ بيد المتخاذلين ويقود الضعفاء، وأن يفتح عيون العمين، وأن يرفع حُجب المحجوبين؟ بل ملوك الإسلام في هذه الأيام كالسكارى أو الأسارى، أو القمر المنخسف بين هالة النصارى، فكيف يصدر من عضدهم فعلُ مَن بارزَ وبارى؟ بل هم قعدوا في البيوت كالعذارى.

ثم من معائب هذه الملوك أنهم لا يشيعون العربية، ويشيعون التركية أو الفارسية، وكان من الواجب أن يُشاع هذه اللسان في البلاد الإسلامية، فإنه لسان الله ولسان رسوله ولسان الصحف المطهَّرة. ولا ننظر بنظر التعظيم إلى قوم لا يُكرِمون هذا اللسان، ولا يشيعونها في بلادهم ليرجموا الشيطان. وهذا مِن أوّل أسباب اختلالهم، وأماراتِ وبالهم، فإنهم تمايلوا على دِمْنةٍ مِن حديقة مطهّرة، ونبذوا من أيديهم حريتَهم، ومزّقوا عَيبتَهم، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو أرفع وأعلى، وشابهوا قومَ موسى. ولو أرادوا لجعلوا العربية لسان القوم، ولو سلكوا هذا المسلك لعُصموا من اللوم، فإن العربية أُمُّ الألسنة، وفيها أصناف العجائب وودائع

القدرة. فمَثلُ رجلٍ مسلم يترك العربية ويفضّل عليها ألسنة أخرى، كمثلِ دنيءٍ يتمشش الخنــزير ويترك طعاما هو أطيب وأحلى. فلا شك أن التركية والفارسية تصدّتْ لهم كطــرّار نقــصتْ دينــهم وخلست مالهم، أو كذئب افترستْ عنقَهم ومزّقت إقبالهم، وأضرّت دنياهم ومآلَهم، وجعلهم كالكحل سحقًا، وكالطحن دقًّــا، ومــا نقول إلا حقًّا. فقد كذَب مَن ذكَرهم بحمدٍ وفّاه، وبنشرٍ ملأ به فاه، وحسِبهم خلفاءَ الله على الأرض وفسّق مَن أنكر دعواه. إنه يرتـــاد جفنة الجواد، لا خليفة البلاد، ويستقْري أن يرشح له ويسحّ عليــه بكلمتيه، ويحرز العين بغَضٍّ عينيه. فالحق أن نسبة الخلافــة إلــيهم خلاف، وكذب واعتساف.

هذا حال السلاطين● أيها الفتيان، ونذكر بعد ذلك علماء هـــذا الزمان، الذين يُعزَى إليهم الفضل والعرفـــان، والله المــستعان، ولا حاجة إلى الترجمة والترجمان، فإنّهم يدّعون علم اللسان.

● ليس مرادنا ههنا مِن ذكر ملوك الإسلام أن كلهم ظالمون، أو كلهم مفسدون، بل بعضهم صالحون، لا يظلمون الناس ويرحمون، كما هو سلطان الروم، ونثني عليه لبعض خليقته المعلوم. بيد أن أمر الخلافة أمرٌ عسير، ولا يُعطى إلا لبصير لا لضرير، وما أُعطيَ هذا السهم لكل كنانة، وإنْ كانوا ذا مرتبة ومكانة. منه.

في ذكر
علماء هذا الزمان

لما ثبت مما سبق من البيان، أن ملوك الإسلام في هذا الزمـــان، لا يطيقون أن يصلحوا المفاسد التي تضرّمت كالنيران، بقي لك حق أن تقول إن هذه الفتن قد تولّدت مِن جهل الجهلاء، وستنعدم من تعليم العلماء، فإنهم ورثاء النبي وكُماةُ هذا الميدانِ، وإنهم منوَّرون بنـــور العلم فيُرجى منهم أن يُصلحوا ما لم يُصلحه سلاطينُ البلدان.

فاعلم أني طالما حضرتُ مجالس هذه العلمـــاء، وخلـــوت بهـــم كالأحبّاء، وربما جئت بعضَهم بزيٍّ نكّرتُه كالغربـــاء أو الجهـــلاء، وجرّبتُهم عند محبّتهم والشحناء، والبؤس والرخاء، وعلمتُ دخلـــة أمرِهم ومبلغَ هِممهم وما عندهم من الاتّقاء، فظهر عليّ أن أكثرهم للإسلام كالداءِ لا كالدواء، وللدين كالهجوم المظلم والهوجـــاء، لا كالسراج المنير والضياء. جمعوا كل عيـــب في الـــسيرة والمريـــرة، ولطّخوا أنفسهم بالمعائب الكثيرة. يجلبون أموال الناس إلى أنفـــسهم مِن كل مكيدة، بأي طريق اتّفق وبأية حيلة. يقولون ولا يفعلـــون، ويعِظون ولا يتّعظون، ويتمنّون أن يحصدوا ولا يزرعـــون. قلـــوبهم

قاسية، وألسنُهم مفحشة، وصدورهم مظلمة، وآراؤهم ضعيفة، وقرائحهم جامدة، وعقولهم ناقصة، وهممهم سافلة، وأعمالهم فاسدة. ما ترى نيّتَهم فيمن خالفوه مِن غير أن يُفيضوا فيه، بأي حيلة يكفّرونه أو يؤذونه، وفي ماله الذي يُرجى حصوله بأي طريق يأخذونه. يتكبّرون بعلم قليل يسير، وليسوا إلا كحمير●. يأمرون الناس بترك الدنيا وزخرفها ثم يطلبونها أزيدَ من العوام، ويسعون أن يتعاطوها ولو بطريق الحرام. ينتهزون مواضع صدقات الأمراء، فإذا أُخبروا فوافَوهم في الطَمْرينِ كالغرباء. ويسألون إلحافًا ولو لُكِموا لكمةً، أو ثُنِّيَ عليهم بلطمة. يتبعون الجنائز ولكن لا للصلاة، بل للصدقات. لا يقبلون الحق ولا يفهمونه ولو كان بيان يُسمِع الصُمَّ، ويُنزِل العُصْمَ. الجبن من صفاتهم، وطيرُ الأهواء في وُكناتهم. البخل فطرتهم، والحسد ملّتهم، وتحريف الشريعة شِرْعتهم. هم عند الغضب ذياب، وفي وقت الأكل دواب. ليس سخطهم ولا رضاهم إلا لنفوسهم الأمّارة، وليس ذكرهم وتسبيحهم إلا للنظّارة. انظرْ إليهم في المجامع ولا تنظر إليهم في الخلوة، لترى السُبْحة في أيديهم، ولا ترى فعلاً آخر يفسد ظنّك في هذه الفرقة. يُكرِهون الناس

● **الحاشية**: ليس كلامنا هذا في أخيارهم، بل في أشرارهم. منه.

ليدفعوا إليهم مما هو عندهم من الدرهم أو الكساء، وإنْ بلّغهم المتربةُ إلى فِناء الفَناء. يحسبون أنفسهم مالِكَ رقاب الناس، إنْ شاءوا يسمّوهم ملائكة وإن شاءوا يسمّوهم إخوان الخنّاس. إن كانت عندهم شهادة فلا يصدُقون، وإنْ يُستَفتَوا فلطمعٍ قليل يكتمون الحق ويكذبون. يؤُمّون الناس في صلواتهم كالمستأجَرين، بل ترى بعضهم يأكل أوقاف المساجد من غير حق ويُتلف حقوق المساكين، ويأبى أن يؤمّ غيرُه ويقول هذا مسجدي أؤمّ فيه من الستين، وإنْ كان غيره أفضلَ منه وأعلمَ ومن المتّقين، بل وإنْ كان الناس يكرهون إمامتَه ويعدّونه من الفاسقين، ويرافع إلى الحكّامَ إنْ عُزِلَ من إمامة المسجد، طمعًا فيما وُقف عليه من العسجد.

وترى بعضهم لو اطّلعوا على مال كسبْتَه، أو كنز أصبْتَه، جمعوا عليك كأذبّةٍ، وجاءوك كأحبّة، ثم لا يبرحون فِناء دارك، حتى يأكلوا من ثمارك.

وتجد قلوب أكثرهم كالأرض التي أجدبت وكانت مِن أردأِ أقسام حَرّة، لا تُنبِت نباتًا حسنًا وما ترى منها من غير مضرّة.

لا يوجد فيهم أثرُ حِلمٍ بل سبقوا السباعَ بحدّة الأسنان، وأَسَلَةِ اللسان. يأتونكم في جلود الضان، وهم ذياب مفترسة بأنواع البهتان، بشرط أن لا يُعرَض عليهم تُرْس العِقيان. يخرجون على

الناس بدَنِّيَّةٍ تقلّسوها، وفُوطة تطلّسوها، وعمامة تعمّموها، وجبّة جمّلوها، وكتبٍ حملوها، وزُغُبٍ شملوها. هذا ما يُظهرون، وذلك ما يعملون. خرجوا في طلب الدنيا ونسوا الدار التي إليها يرجعون. وإذا قيل لهم أتأكلون رزقًا فيه شبهة، قالوا لا بأس علينا إنّا لمضطرّون، وليسوا بمضطرين وإن هم إلا يكذبون. تركوا دار الأمن من التقوى، وحلّوا بأرض فيها يُغتال الناس ويُخطَفون. يؤتون نضَّ الإيمان للرغفان، ويتمايلون على المجّان. وتكتب أيديهم فتاوى الزور والبهتان، ويُجيح إيمانَهم درهمٌ أو درهمان. يمنعون الناس من الحق ويوسوسون كالشيطان، وإذا رأوا أواني نظيفة فيها ألوان أطعمة، سقطوا عليها كأَذِبّة، أو كأنسُرٍ على جيفة. يستوكفون الأكُفَّ بالوعظ المخلوط بالبكاء، ويستقْرون الصيد بتقمّصِ لباس الفقهاء. ما بقي شغلهم إلا المكائد، وكمثلِهم أين الصائد. ولذلك نُحتتْ كتبُ السَمْرِ لإراءة أعمالهم، وبُيِّنَ في القصص الفرضية حقيقةُ أحوالهم، فسمّاهم بعض السامر بأبي الفتح الإسكندري، والآخر بأبي زيد السروجي، وما هما إلا هذه العلماء، فاعتبروا يا أولي الدهاء. وإن الذين نحتوا كمثل هذه القصص من عند أنفسهم ما نحتوها إلا بعد ما ارتعدت قلوبهم من رؤية تلك العالِمين، واقشعرّت جلدتُهم من مشاهدة مكائد هؤلاء المكّارين، ورأوا أنهم قوم آمنَ بيانُهم،

وكفر جنانُهم، فأنشأوا مقاماتٍ تنبيهًا للغافلين، وعــزَوا نَــشْأَتَها وروايتَها إلى رجال آخرين، بما كانوا خائفين من الخبيثين. وكذلك أدّوا شهادة كانت عندهم على العلماء، ولو كانوا في هذا الــزمن لأقرّوا بمكائدهم ولكن ما عدّوهم من الأدباء، فإن العلماءِ الــذين خلوا من قبل كان كلامهم لطيفا، وإنْ كان دينهم رغيفــا، وأمــا المتصلّفون الذين تجدونهم في زماننا في كل بلدة كقطيع الغنم، فهــم ليسوا إلا عبيدةَ الرغفان، لا من الأدباء ولا من أهل القلم. ما غُذّوا بلِبان البيان، وما أُشربوا كأس الحجّة والبرهان. يــسكتون ألفًــا، وينطقون خلفًا. ليسوا متوغلين في العلوم العربية، ولا مرتوين مــن العيون الأدبية. كثُر تكبُّرهم، وقلَّ تدبُّرهم. لا يقدرون على نطــق يفيد الناس، بل يزيدون بقولهم الــشبهة والوســواس. إذا صــمتوا فصمتهم تركٌ للواجب وصقعٌ، وإذا نطقوا فنطقُهم ميت ليس لــه وقع. قصرتْ همّتهم، وفترت عزمتــهم. لا يعلمــون إلا الأمــاني كاليهود، وليس صلواتهم من دون القيام والقعود. ما بقي لهم مــسٌّ بمعضلات الشريعة، ولا دخلٌ في دقائق الطريقة. ولــو انتقــدتَهم لوجدتَ أكثرَهم سقطًا وكالأنعام، وأيقنت أن وجــودهم إحــدى المصائب على الإسلام. تجــدهم كزَمَــعِ النــاس في الإفحــاش، وكالكلاب في الهِراش. يحسبون كأنهم يُتركون سُدًى، وليس مــع

اليوم غدًا. ما كان على الحق الغشاء، ولكن تغلّبَ عليهم الشقاء. عندهم تكفير الناس أمرٌ هيّنٌ -والاعتقاد بموت عيسى له وجه بيّنٌ- وتالله إنهم ما يقصدون فتح الإسلام، بل يقصدون فتح القسوس كالأعداء اللئام، ويتركون الدين في الظلام، وينصرون عقيدة النصارى بخزعبيلاتهم، وبهفوات آبائهم وجهلاتهم. وقد أُمِروا أن يتّبعوا الحَكَمَ الذي هو نازل من السماء، ولا يتصدَّوا له بالمِراء، فما أطاعوا أمر الله الودود، بل إذا ظهر فيهم المسيح الموعود، فكفروا به كأنهم اليهود. وقد نزل ذلك الموعود عند طوفان الصليب، وعند تقليب الإسلام كل التقليب، فهل اتّبع العلماء هذا المسيح؟ كلا.. بل أكفروه وأظهروا الكفر القبيح. وأصرّوا على الأباطيل وخدموا القسوس، فأخذهم القسوس وشجّوا الرؤوس، وأذاقوهم ما يذيقون المحبوس، فرأوا اليوم المنحوس.

سيقول السفهاء إن الدولة البرِطانية أعانت القسيسين، ونصرتْهم بحِيلٍ تُشابهُ الجبل الركين، ليُنصّروا المسلمين، فما جريمة العالِمين؟ والأمر ليس كذلك والعلماء ليسوا بمعذورين، فإن الدولة ما نصَر القسوسَ بأموالها ولا بجنود مقاتلين، وما أعطتْهم حريّةً أزيَدَ منكم ليرتاب من كان من المرتابين، بل أشاعت قانونًا سواء بيننا وبينهم، ولها حق عليكم لو كنتم شاكرين. أتريدون أن تُسيئوا إلى قوم هم

أحسنوا إليكم واللهُ لا يحبّ الكَفّارين الغامطين. ومِن إحسانهم أنكم تعيشون بالأمن والأمان، وقد كنتم تُخطَفون مِن قبْل هذه الدولة في هذه البلدان، وأمّا اليوم فلا يؤذيكم ذباب ولا بقّة ولا أحد من الجيران، وإنّ ليلكم أقربُ إلى الأمن من نهارِ قوم خلتْ قبل هذا الزمان. ومِن الدولة حَفَظةٌ عليكم لتُعصَموا من اللصوص وأهل العدوان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ إنّا رأينا مِن قبْلها زمانًا مُوجِعًا من دونه الحُطَمةُ، واليوم بجُنّتِها عُرضتْ علينا الجَنّةُ، نقطف من ثمارها، ونأوي إلى أشجارها، ولذلك قلتُ غير مرّة إن الجهاد ورفْع السيف عليهم ذنب عظيم، وكيف يؤذي المحسنَ مَن هو كريم؟ ومن آذى محسنه فهو لئيم. وإنّ كُفرانَ خيرٍ أصابك من الإنسان أو الحيوان، ما هو إلا كُفران نعمةِ الرحمان. وإنّ أقسى القلوبِ عند الله الكريم، قلبٌ ينسى إحسان المحسن الرحيم، ويؤذي رجلاً أواه إليه كالمحبوب، ونجّاه من الكروب. ومن أساء إلى المحسن فهو قلبٌ ملعون، أو كلب مجنون، ولذلك ليس من شأن المؤمنين، أن يقتلوا القسّيسين، فإنهم ما تقلّدوا أسلحة، وما قتلوا للدين مسلمًا أو مسلمة، فليس من البِرّ أن تسُلّوا سيوفا بحذائهم، أو تثقّفوا أسنّة لإيذائهم، بل أَعِدّوا كمثل ما أعَدّوا، وذلك حُكم القرآن فافهموا وجِدُّوا، ولا تعتدُوا، إن الله لا يحب المعتدين.

سيصول عليّ شرير أو ضرير ويقول وَيْحك أتحرِّم الجهاد، وإنّا ننتظر المهدي الذي يسفك الدماء ويفتح البلاد، ويأسر كلَّ مَن أرى الكفر والعناد.

فالجواب أن هذه القصص ما ثبتت بالقرآن، بل يأتي المهدي بوقار وسكينة لا كمجنون بالسيف والسنان. أيقبل عقل سليم وفهم مستقيم، أن يخرج المهدي بسيف مسلول ويقتل الغافلين؟ وما كان الله أن يعذّب أمّةً قبل أن يفهّم بالآيات والبراهين. وإنّ هذا أمر لا نجد نموذجه في سُنن المرسلين، ولا يصدر كمثل هذا الفعل إلا من المجانين. فعَدِّلوا ميزان العقل، ولا تميلوا كل الميل إلى سَمْرِ النقل، واتّقوا طعن العقلاء وانبذوا السيف الذربَ، ولا تؤْثروا الطعن والضربَ، ولا تنسَوا حديث "يضع الحرب". ما لكم لا تأخذون حظًّا من المِقَة، كإخوان الصدق والثقة؟ أليس عندكم إلا المرهفات، واللَّهْذَم والقناة، أو بَرِئْتم مِن سبل الحصاة؟

وإن المهدي قد أتى وعرفه العارفون، وهو الذي يكلّمكم أيها النائمون. فوجدتم، ثم فقدتم، كأنّكم لا تعرفون.

كفّرني هذه العلماء من التزوير والتلبيس، وكيف لا والشيخ المفتي إبليس؟ وإن القسوس طرِبوا وشهِقوا بوجود هذه العلماء، وآوَوهم إلى سررهم إعزازًا للرفقاء. فإنهم آثروا الكذب لإحياء

عيسى وزيّنوا دقارير، ونسوا مضجع ابن مريم بكشمير. فلما رأى القسوس بعد التمرّس والتجربة، أنهم حُماتهم في جعلِ عيسى من الآلهة، قالوا لنا عند المسلمين شهادةٌ في عظمة ربنا المسيح، فإنهم يُقرّون بصفاته الربانية بالتصريح. وما كذبوا في هذا البيان، وإنْ كانوا كاذبين عند الرحمان، فإنّك تعلم أن هذه العلماء قد تفوّهوا بألفاظ في شأن عيسى، ليس معناها مِن غير أنهم جعلوه لله كالمتبنّى. ولن تعود دولة الإسلام إلى الإسلام، مِن غير أن يتّقوا ويوحّدوا ويدوسوا هذه العقيدة تحت الأقدام. إنهم يُحَطُّون ويُدَعُّون كلَّ يوم إلى تحت الثرى، إلا إذا اتّقوا وجعلوا عيسى من الموتى.

ووالله إني أرى حياة الإسلام في موت ابن مريم، فطوبى للذي فهم هذا السرّ وفهّم. ألا ترون القسيسين كيف يُصرّون على حياته، ويُثبِتون ألوهيّته من صفاته؟ فأين فيكم رجل يردّ عليهم لله ومرضاته؟ ويُثبِت أنه من الموتى ويسدّد قوله مِن جميع جهاته، ويقوّم سهمه مع موالاته، ويهزم العدوّ بصائبه ومُصْمِياته؟ كلا.. بل أنتم تعاونونهم وتنصرون، وبأصوات النواقيس تفرحون، ولا تُسفِرون عن أوجُهِكم. أأنتم القسوس أم المسلمون؟ أتحولون حولهم لعلّكم تُرزقون؟ أَوَتُوقَّرون بهم وتُعزَّزون؟ ولله العزّة جميعا وله خزائن السماوات والأرض وكل ما تطلبون. فما لكم لا تؤمنون بالله ولا

تتوكّلون؟

ليسوا سواء زمرُ العلماء. فريق اتقوا، وفريق يفسقون. إن الذين اتّقوا لا نذكرهم إلا بالخير وسيهديهم الله فإذا هم يُبصرون. وإذا قيل لهم كَفِّروا هذا الرجل الذي يقول إني أنا المسيح، قالوا ما لنا أن نتكلّم بغير علم وإنّا خائفون. وقد أخطأ كلٌّ من استعجل في موسى وعيسى وفي نبيّنا المصطفى فلِمَ تستعجلون؟ إنْ يكُ كاذبا فعليه كذبه، وإنْ يكُ صادقا فنخاف أن نعصي الله والذين يُرسَلون. وقوم آخرون، منهم آمنوا بالحق وأُوذوا فصبروا عليه، وأُخرجوا من دورهم ومساجدهم، وحُقّروا بعدما كانوا يُعظَّمون. وإذا رأوا آية من الآيات، والأنوار النازلة من السماوات، زاد إيمانهم، وأشرقَ عرفانهم، ورضوا بكل مصيبة بما عرفوا من الحق، وماتوا من هذه الدنيا، وكل يوم إلى الله يُجذَبون. ترى أعينَهم تفيض من الدمع.. ربنا إننا سمعْنا مناديًا، ورأينا هاديًا، فآمنّا به فاغفرْ لنا ربّنا، وكفّرْ عنّا سيّئاتنا، ولا تُمِتْنا إلا ونحن عليه ثابتون. أولئك الذين أرضَوا ربّهم، وله تركوا صحبَهم وصيلَ على بعضهم فقضوا نحبهم، أولئك عليهم صلوات الله وبركاته وأولئك هم المهتدون.

إن الذين بَلَغَتْهم بشارةُ بعث المسيح فما قبلوها أولئك هم المحرومون. يضاهئون النصارى بعقائدهم ولا يشعرون. يقولون إن

القسوس أقربُ منكم إلى الحق. أولئك الذين لعنهم الله والملائكة والصلحاء أجمعون. وإن الذين شقُوا ما والاهم إلا مَن ولَّى، وما صافاهم إلا القلب الذي صار كالكلب ومِن النور تخلّى، ونُشِّئَ في الجهل وبالعلم ما تحلّى، فسيعلم إذا الله تجلّى.

ألا يرون الطاعون؟ ألا يرون سهامَ أشرار، كأنها شواظٌ من نار؟ وقد نزل العِدا بساحتهم، وتشمّروا لإجاحتهم، فما بارزوا الأعداء وما أعدّوا، وما فكّروا في حيلٍ أجاحوا الدين بها وردُّوا.

انظروا إلى هذه العلماء، إنهم ما دخلوا الدار من بابها البيضاء، بل تَسوّروا جدران الحق من الاجتراء. وإن المسيح قد وافاهم مع العلوم النُخب، رُحْمًا من الله ذي العجب، وما أنضَوا إليه ركابَ الطلب، بل اضطرمت نار الفتن فاقتضت ماءَ السماء، فنزل مسيح الله بعد ما نزلت على الناس أنواع البلاء. وترون كيف صالت القسوس وشاعت الملّة النصرانية، وقلّت الأنوار الإيمانية، ودقّت المباحث الدينية في هذا الزمان، وصارت معضلاتها شيء لا تفتح أبوابها من دون الرحمان. فاليوم إنْ كان زمام الدين في أكفّ هذه العلماء، فلا شك في خاتمة الشريعة الغرّاء، فإنهم إذا بارزوا فولّوا الدبر كالمبهوت المستهام، وكانوا سببًا لاستخفاف الإسلام. وكيف يتصدّى رجل للحرب، قبل أن يمرن على عمل الطعن والضرب؟ ووالله، إنهم قوم

لا توجد في كلامهم قوّة، ولا في أقلامهم سطوة، ثم مع ذلك يوجد في أقواهم سمّ الرياء، ولا يتفوّهون من الإخلاص والاتّقاء، بل تُشاهَد فيها أنواع العفونة، من الجهل والتعصّب والرعونة، ولا يُرى فيها صبغٌ من الروحانية، ولا يُؤنَس شيء من النفحات الإيمانية، ولا يكون محصّلها إلا ذخيرة الشك والريب، ولا يُرْشَح على قلوبهم علم من الغيب، ولذلك لا يقدرون على تسلية المرتابين، وتبكيت المعترضين، بل هم في شك ومن المتذبذبين. وكثير منهم نجد منهم ريح الدهريين، وليس قولهم إلا كالسرجين، أو كميتٍ قُبر من غير التكفين. وليسوا إلا عارًا على الإسلام وتبارًا للمسلمين، لا سيّما في هذا الحين، فإن الناس يتطلّبون في هذا الأوان، مَن يُخرِجهم من ظلمات الشك إلى نور الإيقان، ويحتاجون إلى نطقٍ يشفي النفس، وينفي اللبس، ويكشف عن الحقيقة الغمّى، ويوضح المعمّى. فأين في هؤلاء رجل توجد فيه هذه الصفات؟ وكيف مِن غير حديد تُكسَر الصفاة؟ وأين فيهم رجل بليغ يتمايل عليه الجُلّاس؟ وأين فصيح يتفوّه بكَلِمٍ يستملحها الناس؟ وأين فيهم مُزكّى يُحيي القلوب، ويهَب السكينة ويدرأ الكروب؟

وأين كلام تحكي لآليَ منضّدة؟ وأين بيان يضاهي قطوفًا مذلّلة؟ بل أخلدوا إلى الأرض بحرص شديد، فأنَّى لهم التناوش من مكان

بعيد؟ وما كان لأحد أن يكون قادرا على حُسن الجواب، وفصل الخطاب، ومستمكنًا من قول هو أقرب إلى الصواب، من غير أن ينفخ فيه مِن رب الأرباب. فانظروا أتجدون فيهم مَن يبكّت المخالف في كل موردٍ تَورّدَه، ويُسكّت الزاري عند كل كلام أوردَه؟ أتجدون فيهم مَن كان سبّاق غايات في مُلح الأدب وغُرر البيان، ولا يأخذه خجالة في أساليب التبيان، ثم مع ذلك كان البيان في معارف الفرقان، مع التزام الحق والصدق والاجتناب من الهذيان؟ أرأيتم فيهم من يخوّف قِرْنَه بالبلاغة الرائعة، ويذيب النفوس بالكلم الذائبة المائعة، أو يُرِي الكلامَ في الصورة كالدرر المنثورة؟ ولن ترى فيهم صِرِّيعًا، ومَن كان في العلوم يَحكِي بقيعًا. نعمْ، ترى فيهم أمواجَ تكبُّرٍ وخيلاء، مِن غير فطنة ودهاء، ثم مع هذا الجهل بلغتْ رؤوسهم إلى السماء، ولا يمشون على استحياء، ولا ينتهون من تصلُّف واستعلاء، ورعونة ورياء، وتحقير وازدراء.

وكأيِّنْ مِن آية أنزلها الله ثم لا يُصغون، ويمرّون ضاحكين على الله ورسله ويستهزئون، ولا يعبدون إلا أهواءهم ولا يتدبّرون. وقالوا أَرِنا آية من الله، وقد ظهرت الآيات من السماوات والأرض لقوم يتّقون. وقيل إن كنتم في شكّ من كلامي فأْتوا بكلام من مثله، فما أتوا بمثله، وما تركوا الظن الذي به أنفسَهم يُهلِكون.

وإن منصب العلماء خطبٌ خطير، وأمر كبير. لا يليــق لهــذه الخدمة إلا الذي فُتحت عليه أبواب الحجّة البالغــة، ورُزِق نظــرًا مُنقّحًا من حضرة الغيب، وعِلمًا مُنــزَّهًا عن الشك والريب، ومع ذلك أُعطيَ عذوبةَ البيان، والمُلَحَ الأدبية والحلل المستحسَنة لإراءة ما في الجَنان، وعُصِم مِن مَعرّة الحصر واللَّكَن، وأُسبِغَ عليــه عطــاء اللَّسَن. ولكن هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم علماء، مــا أعطــاهم قسمةُ الله إلا الضوضاء. قرأوا القرآن، وما مسَّ القرآنُ إلا اللــسان، وما رأى القرآن جنانَهم، وما رأى جنانُهم الفرقان، وأروا أفعــالاً خجّلوا بها الشيطان. ترى عقدةً على لسانهم، وقبضًا في جنــانهم، ودَجْلاً في بيانهم. ما أُيِّدَ نطقُهم بالحجّة، وما سلك قولهم في ســلك البلاغة. تراهم كغبيٍّ غَمْرٍ ليس له معرفة، ولا يُدرَى أقُفْلٌ على لسانه أو لُكْنةٌ، كأنهم حُصروا في مكان ضيّق ولا يتراءى سبيل، وأكَــل تمرَهم دودةُ النفس وما بقي إلا فتيل. تمترس ألسنُهم في الخصومات، ولا يُعِدّون للعِدا ما يبكّتهم عند المباحثات، ولا يُظهِــرون جــوهر الإسلام، بل يتكلمون كمدلِّسٍ متزلزلة الأقدام، فيجعلون الإســلام غرضًا للسهام. أولئك كالأنعام، وإنّ نطق الأنعام ليس بــه هَــيْن، وندامة الخُرْسِ أشدُّ من الحَيْن. يطلبون قنطارًا من العين، ولا يطلبون بصارة العين. يُظهِرون جَهامهم وابلا، وسَقَطَهم جوهرًا قابلا، ولا

يضاهئون إلا حابلا.

ولا أقول حسدًا من عند نفسي ولا مِن الابتدار والعجلة، وأعوذ بالله من الحسد والكذب والتهمة، بل قلتُ كلَّ ما قلتُ بعد التمرّس والتجربة، إلا الذين طابت طينتهم، وصلحت نيّتهم، فأولئك مُنزَّهون عن هذه الملامة. ولا أفسّق إلا الذين فسقوا، ولا أجهّل إلا الذين جهلوا، وتلك الحبوب هي الأكثر في هذه العُرمة، وإن كنتم في شك فأمعِنوا النظر مرارًا، وسرِّحوا الطرف أطوارًا، وتدبّروا تؤدةً ووقارًا، وانظروا.. هل تجدونهم مِن حُماة الإسلام وخدّام الملّة؟ وهل تتوسّمون فيهم ميسمَ الأبرار وذوي الفطنة؟ بل هم يشابهون جَهامًا وخُلّبًا، ويُضاهئون متصلِّفًا قُلّبًا. لا تجد فيهم ريح الصادقين، ولا راحَ العارفين. ينقلبون في قوالب العلماء، ولا تجدهم إلا كقالب مِن غير قلب الأتقياء. إنْ هم إلا كالأنعام، ما أُرضعوا ثديَ العلم وما أُشرِبوا كأس الكرام. يخدعون الناس بحلل العلماء، وسناعة المتاع وحسن الرُّواء، وإنْ هم إلا قبور مُبيَّضة عند العقلاء. وليس عندهم مِن غير لُحًى طُوّلتْ، وآنُفٍ شمختْ، ووجوهٍ عبستْ، وقلوب زاغت، وألسنٍ سلطتْ، وكلم تعفّنتْ. يرمون البريئين، ويُكفّرون المسلمين. وكم من خصال فيهم تحكي خصائلَ سِباعٍ، وكم من أعمال تشابهُ عملَ لَكاعٍ، وكم من لدغٍ سبق لَدْغَ حيَوات

الصحراء، وكم من طعن خجَّل قنا الهيجاء. يدّعون أنهم على خُلقِ إدريس، ثم يُظهِرون خليقةَ إبليس.

فالحاصل أنهم ليسوا رجال هذا الميدان، بل هم قوم استولى عليهم الوهن والكسل كالنسوان، ورضوا بالدنيا الدنيّة واطمـأنّوا بها، فيُخلِدون كل يوم إلى وِهاد العصيان. يُؤثِّمون الناس ويُفسِّقونهم بالألسنة المتطاولة، مع أن نفوسهم قد اتّسخت بدرن المعصية. يبادرون إلى مواضع الشحّ والنهمة، ويتقاعسون من ميادين نصرة الملّة. يتمايلون على عَرَضِ هذا الأَدنى، وخدَعهم متاعٌ قليل أكدى. يعِظون على المنابر، ويتراءَون كالمتّقي الصابر، وإذا قضوا الصلاة، وأزمعوا الانفلات، فنسوا ما وعظوا كرجل مات. فمَن فيهم يوجد فيه مواساة الدين، ومقاساة الشدة للشرع المتين؟ ومن ذا الذي ذاب لدين المصطفى، والوجدُ نفَى عنه الكَرى، وبرى أعظُمَه لما انبرَى؟ ثم مع ذلك كثر فيهم الكسل والغفلة، وقلت الفطنة. وأنَّى فيهم قوم يستقْرون مجاهل، ويرِدون مناهل، ويستخرجون دُرر العرفان، مِن بحار اشتدّت إليها الحاجة للزمان؟ بل تراهم من جذبات النفس كالسُكارى، وفي أهوائها كالأسارى. ما لهم أن يكشفوا عن وجه المعضلات النقابَ، ويجدّدوا ما درس وغابَ، وينقّحوا الأمور

ويجمعوا ما صلح وتاب*، ويجتنبوا الاحتطاب، ويُنفِدوا الأعمار لتعرُّف الحقائق، ويذيبوا الأبدان لأخذ الدقائق، وأن لا يبرحوا فِناء تحصيلها، حتى يتيسّر سلوكُ سبيلها، ويتضّح معالم دليلها، ويرشح على صدورهم خفايا الدين، ويُلقى في قلوبهم علم اليقين. كلا.. بل ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم من المحسنين. وما ترى في كَلِمِهم روحانية وتراهم كالمحتطبين. واشتدّت حاجة الإسلام في زمننا إلى آراء صائبة، وأفكار مستنبطة، وطبائع متوقّدة، وقلوب صافية، وهمم منعقدة، وأدعية مقبولة، وفيوض من الله متوالية، ومساعي لله جارية. وقد ضاق وقت إصلاح الأمّة، وما بقي إلا كرَمَقِ المُهْجة. وما يُجدي طلاّبَ الآثار، بعد ما فُقِدَ العينُ من الإبصار؟

انظروا إلى الأيام يا سراةَ الإسلام، وقد مضى خُمسٌ من رأس المائة ومِن هذا الضيف البدر، فأرُونا مَن جلس على هذا الصدر، وأرُونا مَن قام لجبرِ سريرٍ انكسر، ووجهٍ منير استتر. واعلموا أن هذا الباب لن يُفتح بأسلحة متقلَّدة، بل يحتاج إلى دلائل قاطعة، وآيات ساطعة، وإلى العارفين الذين يتدبّرون بشرةَ الشريعة وخوافيها،

* يبدو أنه سهو والصحيح: طاب. (الناشر).

ويخدمون ظواهر الملّة وما فيها، لتطمئن بها القلـــوب، وتنكـــشف الغيوب، وينتفع المحجوب.

أيها الكرام وسراة الإسلام، قد جلّ ما عراكم من الداهية، وعظُم ما نزل من المصيبة، فأروني ما هيّأتم لدفاع هذه الجنـــود المجنّـــدة. أتَعرِضون علينا هذه العلماء، وهذه المشايخ والفقراء، فإنّا لله علـــى وقتٍ جاءَ، ومصيبة حلّت شريعتَنا الغرّاء. الآن يحتاج الإســـلام إلى رجل آتتْه يد الغيب ما يُعطَ لغيره، وأراه الله ما لم يره أحد في سيره، وجعله الله من الموفَّقين المنصورين، وورثاء النبـــيين، ومَـــنَّ عليـــه بالامتياز بالعلم والبصيرة، والهمّة والمعرفة، والإصابة والإجادة، وقوّة الإرادة، ووهب له دراية تُعَدّ مِن خرق العادة، ومتّعه بكـــثير مـــن الثمار، وما ترَكه كحِرْباءِ يتعلق بالأشجار، ليُلْفِيَ الطـــلابُ عنـــده حقائقَ نوَوها، ويجدوا نَشْرَ معارفَ طوَوها، وليأخذوا منه العجائب، ولينالوا الغرائب، وليُهرَع الخَلق إليه كذي مجاعة وبؤسى، ويأووا إليه كبني إسرائيل إلى موسَى، وليذوقوا به طعم الأسرار، ويـــسرحوا في مسرح الأنوار.

ومع ذلك مِن شرائط مصلح أهل الزمان، أن يفوق غيرَه في التفقّه وقوّة البيان، وأن يقدر على إتمام الحجّة ولا كأهل الصناعة، ويسرد الكلام على أسلوب البراعة، ويعصم نفسه مـــن الخطـــأ في الآراء،

ويرى الحقَّ والباطل كالنهار والليلة الليلاء، ليحرز الناسُ بـــه عـــينَ الأمور المنقّحة، وليجمعوا دُرر المعارف في صرّةِ قوّةِ الحافظة.

ومن شرائط المصلح أن ينقّح الإنشاء، ويتصرّف فيه كيف شاء، ويجتنب ركاكة البيان، ويؤكّد قوله بالبرهان.

وأنت ترى أن هذه الشرائط مفقودة في هذه الفرقة، وما أُعطيَ لهم إلا قليل من الصور الإنسانية، بل لا يـــستيقظون بمـــواعظ ولا ينتهجون مهجّة الحزم والفطنة، وما أراهم إلا كجمادات أو كفرخ الدجاجة، وما مرّ عليهم إلا ليلة على الخروج من البيـــضة. فمـــا ظنّك.. أيُبطل هؤلاء ما صنع القسوس من أسلحة للإهلاك والإبادة؟ لا والله.. بل هم كصرعى لا رجال الجلادة، وما بقي فيهم حركـــة ولا علامة من القصد والإرادة. قد استسنَوا قيمة الـــدنيا ووزنَهـــا، واستغزروا ماءها ومُزْنَها. غرّوا بإجمال عشرها، وتجميل قـــشرها، وأحالت الأهواء صفاتِهم الإنسانية، حتى جهلوا الحقوق الرحمانيـــة. فكيف يُتوقَّع منهم نصرة الدين؟ وكيف يحيا الميّت بعـــد التجهيـــز والتكفين؟ وإن نصرة الدين ليس بهَيْن، وما تصل إليها إلا بعـــد أن تصل إلى الحَيْن. ولن يؤتَى هذا الفتح لعُرْضِ الناس وعامّتهم، ولـــن تُهزَم العدا بعصيّهم وحربتهم. فمـــن الغبـــاوة أن يفـــرح رجـــل بوجودهم، أو يتمنى خيرا من دودهم. فتحسّـــسوا يوســـف عنـــد

الإمحال، ولو بالسفر البعيد وشدّ الرحال. ولا تنظروا إلى حُلل هذه العلماء، فإنه ليس فيها من دون البخل والرياء، وسِيَرٌ أُخر لا تليق بالصلحاء.

وإني دعوتهم حق الدعاء، فما زادوا إلا في الإباء. وكم من كتبٍ كتبتُ، ورسائلَ اقتضبتُ، وجرائدَ أشعتُ، وفرائدَ أضعتُ، فما نفعهم دُرّي ودَرّي، وتراهم أحرص الناس على ضيري وضرّى. فلما رأى الله أُلْهُوبَهم، أزاغ قلوبهم، وغشّى لبوبهم.

قوم زائغون لا يتوبون من أباطيلهم، ولا ينتهون من تسويلهم. يرون شِرب الإسلام كيف غاضَ، ويرمقون حصنه كيف انهاضَ، ثم لا يستمطرون سحب السماء، ولا يريدون أن يُبعَث رجل من حضرة الكبرياء، كأنهم بسورة "النور" لا يؤمنون، وعند قراءة "الفاتحة" لا يُؤمِّنون، وطبع الله على قلوبهم فلا يهتدون، بل لا ينظرون إلى ناصح بعينِ عاطفٍ، ولا يُخفِضون له جناحَ مُلاطِفٍ. وليس فيهم أحد يريد أن يأسو جراحهم، ويريش جناحهم، ويشفي قلوبهم، ويزيل كروبهم. وإذا قام فيهم رجل أُرسِلَ إليهم قالوا مفتري كذّاب، وسيعلمون من الكذّاب، وتأتي أيام الله وسيرجعون إلى مقتدر شديد العقاب.

أيها العلماء، فكِّروا في وعد الله واتّقوا المقتدر الذي إليه تُرجعون، إنه جعل النبوّة والخلافة في بني إسرائيل ثم أهلكهم بما كانوا يعتدون،

وبعث نبيًّنا بعدهم وجعله مثيل موسى، فاقرأوا سورة "المزّمّـــل" إن كنتم ترتابون. ثم وعَد الذين آمنوا وعد الاستخلاف، ففكّـــروا في سورة "النور" إن كنتم تشكّون. هذان وعدان من الله فلا تُحرّفـــوا كلم الله إن كنتم تتّقون. ولذلك بُدِئَ سلسلةُ نبيّنا من مثيل موسى، وخُتِمَ على مثيل عيسى، ليتمّ وعد الله صدقًا وحقًّا، إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون. وكان من الواجب أن يتساوى السلسلتان.. الأول كالأول والآخر كالآخر. ألا تقرأون القرآن أو به تكفرون؟ فـــإنْ تمنّيتم أن ينـــزل عيسى بنفسه فقد كذّبتم القرآن، وما اقتبستم مـــن سورة "النور" نورا، وبقيتم مع النور كقوم لا يبـــصرون. أتبغـــون عِوَجًا بعد أن تساوى السلسلتان؟ اتّقوا الله وعدِّلوا الميزان. ما لكم لا تتفقّهون؟ وكان وعد الله أنه يستخلف منكم، وما كان وعده أن يستخلف مِن بني إسرائيل، فلا تتّبعوا فَيْجًا أعوجَ وتعالوا إلى حَكَمِ ربِّكم إن كنتم تسترشدون. أتريدون أن تُفضّلوا على سلسلة نبيّكم سلسلة موسى؟ تلك إذًا قسمةٌ ضِيزى! فلِمَ لا تنتهون؟ ألا تقـــرأون سورة "النور"، أو على القلوب أقفالها، أو إلى الله لا تُـــرَدّون؟ وإن القرآن عدّل الميزان، وأعطى نبيًّنا كلَّ ما أعطـــى مُهْلِـــكَ فرعـــونَ وهامان، فما لكم لا تعدِلون؟ وقد بلّغ القرآن أمره، فمَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أتختارون أهواءكم على كتاب الله، أو

بلَغكم علمٌ يساوي القرآن، فأخرِجوه لنا إن كنتم تصدُقون. كلا.. بل وجدوا كُبراءهم عليه فهم على آثارهم يُهرَعون. وقد سوّى الله السلسلتين وهم يزيدون وينقصون. فمن أظلم ممن اتّخذ سبيلا غير سبيل القرآن؟ ألا لعنة الله على الذين يظلمون. يا حسرة عليهم! ألا يتدبّرون القرآن، أو هم قوم عمون؟

وإذا قيل لهم أتتركون كتاب الله قالوا وجدنا عليه آباءنا، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يعقلون. أتتركون كلام ربّكم لآبائكم؟ أُفٍّ لكم ولما تعملون!

وقالوا إنّا رأينا في الأحاديث. وما فهموا قول رسول الله وإنْ هم إلا يعمهون. يريدون أن يُفرّقوا بين كتاب الله وبين قول رسوله، قومٌ مُفترون. وقد صرّح الله حقّ التصريح في الفرقان، فبأي حديث بعده يؤمنون؟ يؤْثرون الشك على اليقين، وهذا هو مِن سِيَر قوم يهلكون.

أيها الناس، إنّ هذا كان وعدًا من الله، فسوّى السلسلتين كما وعد، فما لكم تجوّزون الخُلْفَ على الله ولا تخافون؟ أتعزُون إلى الله نكث العهد والوعد؟ سبحانه وتعالى عما تزعمون! أظننتم أن سلسلة المصطفى لا تُشابه سلسلة موسى؟ وإنْ هذا إلا تكذيب القرآن إنْ كنتم تفهمون. ألا يُشابه أوّلُها بأوّلها وآخرُها بآخرها؟ ساء ما تحكمون. أرَفعتم موسى ووضعتم المصطفى؟ أُفٍّ لكم ولما

تصنعون. أتُخْسِرون القسطاس بعد تعديله ولا تعدلون كفّتَيْه ولا تقسطون؟ وإن الله أرى فضل هذه السلسلة بختم الأمر عليها، ثم تأتون بعيسى وأنتم تعلمون. ما لكم لا تؤتون ذا فضل فضله وتظلمون؟ أتقطعون رِجْلَ هذه السلسلة وتُبقون رأسها، وما هذا إلا فعل المجنون. أتحرّفون كلام الله كما حرّفتم من قبل وقلتم ما قلتم في آية: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وما خفتم ربّكم الذي إليه تُساقون. وما جزاء المحرّفين إلا النار، فما لكم لا تتوبون؟ إن الذين يحرّفون كَلِمَ الله متعمّدين مأواهم جهنّم وهم فيها يُحرقون. إلا الذين أخطأوا من قبل زماني هذا ومن قبل أن يبلغهم أمر الله وأمرُ حَكَمِه أولئك قوم يُغفَر لهم بما كانوا لا يعلمون. والذين يصرّون عليه بعد ما نُبّهوا أولئك الذين عصوا ربّهم وأولئك هم المعتدون. مَن حرّف كلام الله فقد سفك دماءَ العالمين، فأولئك هم الملعونون. إن هؤلاء عُميٌ ما أُعطيتْ لهم أبصار، وبين الحق وبينهم جدار، وسقاهم شيطانهم شربة فيتحسّونها، وفيها سمّ فلا يرونها، فلا تحسبهم أحياءً فإنهم أموات، وسيذكرون ما فعلوا بالأمس إذا رأوا يومًا له سطوات.

جحدوا بالحق الذي حصحصَ، وتراهم كخفّاش أبغضَ النور وتدلّسَ. جاءهم داعٍ إلى الله فما رحّبوا، وتنفّس لهم الصبح فما استيقظوا، وفُتح لهم باب الرحمة فما دخلوا وتقاعسوا. يضحكون

على رجل لا يرقأ دمعه رُحمًا على حالهم، وتتحدّر عبراته حسراتٍ على مآلهم. رأوا آياتٍ فلا يؤمنون، وحلفْنا بالله فلا يصدّقون، وعرضنا القرآن عليهم فلا يلتفتون. فنشكو إلى الله ربّ البرايا، مِن إعضال هذه القضايا، فإنها ما قُضِيتْ لا بالشهود ولا بالألايا. وإني دعوتهم مُذْ يفعتُ، وكم من وقت لهم أضعتُ، وكنتُ رجلا يتمطّى في حُلل الشباب، ويحكي النُشّابَ، والآن ترون ذلك الشاب قد شاب، وإن هذا مقامُ تدبُّر للمتدبّرين. وهل مِثلي يتقوّل ويُمهَل إلى الستين؟

ليس على الحق غشاء أيها الطالبون، بل طُبع على قلوبهم بما كانوا يكسبون. إن الشمس قد طلعت ولكن لا تُفتَح إلا عينُ الذين هم يتّقون، ويُجعَل الرجس على الذين يفسقون. ينظرون إلى آي الله كيف أشرقتْ ثم لا يُبصرون، ويرون فتنًا كيف أحاطت ثم لا يبالون. وإذا قيل لهم إن الآيات، قد ظهرت من الأرض والسماوات، قالوا إنّا بكلٍّ كافرون. أفينتظرون عذاب الله وقد جاء الطاعون؟ ألا ينظرون إلى رأس المائة وقد مضى قريبًا من خُمسها، ومُلئت الأرض ظلما وجَورًا، أفلا يعلمون؟ أنسوا ما قال ربهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟ أأخلفَ الله هذا الوعد وقد رأى أن الناس من أيدي القسوس يُهلَكون؟ لهم عيون كليلة، وقلوب عليلة، وهمم

مصروفة إلى فكر البطون، وإلى زُغبٍ محدِّدَةِ العُيُون، فلذلك أخلدوا إلى الأرض كل الإخلاد ويكذبون ويكذّبون. ثم التعصب أحلّهم محلّةَ السباع، ومنعهم من القبول بل من السماع، فمَن منهم أن يقول: صدَق فوك، ولله أنت وأبوك، بل هم على التكذيب يصرّون، ويسبّون ويشتمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ليس دينهم إلا الأهواء، والرغفان والدراهم البيضاء. أتزعمون أنهم يؤمنون؟ كلا.. بل ينافقون ويكذبون. وتركوا نبيّهم واتّخذوا أهل الدنيا صحبًا، وحسبوا فِناءهم رحبًا. يرون أن العدا يصولون على المسلمين كرَثانٍ متوالٍ إلى السنين، ولا رشاشَ منهم بحذائهم لِغَيرة الدين. وارتدّ فوج من الإسلام، وما أرى على وجههم أثرا من الاغتمام. اتّخذوا إبليس وليجة فيتّبعونه، وقاسموه التعبّدَ فما دونه. لا يعرفون ما الدين وما الإيمان، وكفاهم لحم طريّ والرغفان. يُنفِدون العمر ببطالة وما أرى فيهم بطلَ هذا الميدان. بل لهم أفكار دون ذلك أُحْرِضوا فيها من الأحزان. ترتعد فرائصهم برؤية الحكّام، ولا يخافون الله ذا الجلال والإكرام. يمشون في الليل البهيم، وبعدوا من النور القديم، وتهادى بعضُهم بعضا غفلةً، ولا ينتج اجتماعهم إلا فتنة. وكم من كُتب النصارى فشا ضرُّها بين القوم، وصار الإسلام غرض الضحك واللوم، ولكنهم يعيشون كالمتجاهلين، أو كالعمين،

ويسمعون كلم النصارى ثم يقعدون كالمتقاعسين، ونسوا الوصايا التي أُكِّدتْ لتأييد الإسلام، وقست قلوبهم واستبطأوا حِينَ الحِمام. لا يأخذهم خوف بشيوع الضلال، ويشاهدون ظهور الفتن وحلول الأهوال. ويعلمون أن القسوس أَمَرُّوا عيشنا بأكاذيب الكلام، وأرادوا أن يطمسوا آثار الإسلام، ومع ذلك أعرضوا عن شبهاتهم، كأنهم فرغوا من واجباتهم، وأدّوا فرائض خدماتهم.

ومنهم قوم لم يواجهوا في مُدّة عمرهم تلقاءَ المخالفين، وأنفدوا أعمارهم في تكفير المؤمنين، وتكذيب الصادقين، وكنتُ أتحفّى بإكرام تلك العلماء، وأظنّ أنهم من الأتقياء، ولكن لـمّا لحظت إلى خصائص أسرارهم، وخَبِيِّ ما في دارهم، علمتُ أنهم من الخائنين، لا من الصالحين المتديّنين، وفي سبل الله من المنافقين، لا من المخلِصين المخلَصين، ورأيتُ أنهم كل ما يعلمون ويعملون فهو منصبغ بالرياء، وصدورهم مظلمة كالليلة الليلاء، فرجعتُ مما ظننت مسترجِعًا، وبدّلتُ رأيي متوجّعًا، وأيقنتُ أن فراستي أخطأتْ، وأن القضية انعكست. إنهم قوم آثروا الدنيا الدنيّة، وطلبوا الوجاهة واللهنيّة. يرون المفاسد في الأمصار والمَوامي، ثم يغضّون الأبصار كالمتعامي، وترامى الجرح إلى الفساد ولكن لا يرون الترامي. ما أجابوا داعيَ الله مع دعوى العينين، ولا جابوا لو دُعوا إلى مِرْماتين.

لا يفكّرون في أنفسهم: أيّ شيء يفعلون للدين، أخُلقوا لأكل المطائب والتزيين؟

ولقد فسدت الأرض بفسادهم، وشاع الطاعون في بلادهم، وإنه بلاء ما ترك غورًا ولا نُشُزًا، وإذا قصد بلدةً فجعله صعيدًا جُرُزًا. والذين أوَوا إلى قريتي مخلصين وأطاعونِ، فأرجو أن يعصمهم الله من الطاعونِ. إنّ هذا وعدٌ من ربّ العزّة والقدرة، وإنْ أنكرتْه العيون التي ما أُعطيَ لها حظٌّ من البصيرة.

فالأسف كل الأسف على العلماء، لا يرون ما أراهم الله من السماء، وأكلوا رأس المائة كرأس الضان، وما فكّروا في مواعيد الرحمان، وانجلى الشمس والقمر بعد كسوف رمضان، وما انجلى قلبهم مِن ظلمة خجّلت الشيطان. أمَا رأوا هاتين الآيتين من السماء؟ مرّة في أرضنا هذه ومرّة في أهل الصلبان من الأعداء؟ فما لهم لا ينتهون، وبآيات الله لا يؤمنون؟ أم أسألهم مِن أجرٍ فهم من مغرم مثقلون؟ فليفرّوا من آيات الله فسوف يعلمون. ألا يرون أن المفاسد كثرتْ، والفتن علتْ وغلبتْ، والفسق قطع الإيمانَ وجذّم، وأكلت الناس نارٌ تضاهي جهنّم، فمن ذا الذي يُصلِح عند فساد غَلَبَ، وكَيّادٍ خَلَبَ؟ وكيف يُظَنّ أنّ هذه المفاسد ما قرعتْ آذانهم، وما بلغت أخبارُها رجالهم ونسوانهم؟ فإن هذه داهية مهيبة، ومصيبة

مذيبة، وما من يوم يمضي، ولا شهر ينقضي، إلا وتزداد هذه المحن، وتنتاب هذه الفتن، ثم مع ذلك اختار العلماء طورًا نُكْرًا، وأبقَوا لهم في المخزيات ذكرًا.

وإن القسوس قد زرعوا زرعهم كسِرْوةِ الجَراد، وما تركوا أثرًا من التقوى وجعلوا البلاد كالسَّنَةِ الجَمادِ، فانظروا هل تجدون من أرضٍ محفوظة، أو بلدة غير مدلوظة؟ أشاعوا أنواع الوسواس، وكادوا كيدًا هو أرفع من القياس، وأضلّوا صبيان المسلمين، والجهلاء المتعلّمين، وجذبوهم بأنواع الحِيل والترغيب في الأهواء، فارتدّوا وصاروا كحُساسةٍ أُخرِجَت من الماء، وكذلك احتلسوا نيّتهم وأظهروا خُضرهم في هذه البلاد، وكثروا في كل طرف ولا ككثرة الجراد. فاسألْ هذه العلماء ما فعلوا عند هذه الآفات؟ أأرادوا أن يموّنوا خُطَطَ الإسلام ويؤدّوا حقّ المواساة، ويقوموا للمداواة، أو تَستّروا في الحجرات، واكتسَوا لفائف الأموات؟ وتصدّى للإسلام سَنَةٌ حَسوس، ويوم عبوس، وزمان منحوس، فمن ذا الذي يذوب قلبه لهذه الأحزان، وأيّ قلب يبكي لفساد أشاعها أهل الصلبان؟ كلا.. بل الذين يقولون نحن علماء الأمّة وورثاء دين الرحمان، هم أرضَوا بأعمالهم ذراريَ الشيطان، وما بقي لهم شغل مِن غير الفسق والتفسيق والتكفير، وإضلال الأمّة بالدقارير. وأفتاهم خُبثهم بأن

الفوز في المكائد، وأن الكيد مُنــزل الموائد، فيرصدون مواضعه كالصائد، ولو بوساطة الحكّام والعمائد. شابهوا اليهود في جميع صِفاتهم، وأتَوا بجندل بحذاء صَفاتهم، وزادوا جهلاتٍ على جهلاتهم. يحبّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، ويغضبون إذا لم يُعظَّموا. يستكبرون كالسلاطين، وما هم إلا دود التراب كالخراطين. يريدون من الخَلق الإطاعة، ولا عقل لهم ولا براعة. فمَن خالفهم فكأنه خرَّ مِن حالق، أو تُرِكَ كطالق. يحجرون على الناس نساءهم، إذا لم يوفّوا أهواءهم. وإنْ مِن كذبٍ إلا وهو يخرج مِن فيهم، وإنْ مِن شرٍّ إلا وهو يوجد فيهم.

وفريق منهم أصبى قلوبَهم هوى الجهاد، ويُغْرُون الجهلاء على ضرب العناق بالمرهفات الحِداد، فيغتالون كلَّ غريب وعابرِ سبيل، ولا يرحمون ضعيفا ولا يُصْغون إلى صراخ وعويل، ولا يتّقون. فويل لهم ولما يعملون. أيقتلون قومًا هم يُحسِنون؟ أيقتلون الذين لا يقتلون للدين الإنسانَ، ويُفشُون الإحسانَ، ويُنشِئون الاستحسان، ولا يستعملون للدين السيف والسنان؟ بل هم منتجَعُ الراجي، والكهفُ عند البلاء المفاجي. تنهلّ لُهاهم عند الطلب، ولا انهلالَ السُحب. ينصرون من خاف نابَ النُوب، ويحاربون من تصدّى للحرب، ويدفعون ما أسلمَكم للكُرب، ويهيئون لكم أسباب

الطرب. أتضربون أعناق هذه الحُماة؟ ما أفهمُ سرَّ هذه الغزاة. أهذا نصرة الدين أو الأهواء؟ وما هذا الجهاد الذي يأباه الحياء، ولا يقبله العقل السليم والدهاء؟ وما بال قوم أَمَّهم هذه العلماءُ؟ كلا.. بل مَثلهم كمثل ذئاب أو كنمر وكلاب. ووالله إنهم ليسوا إلا خطباء الدنيا الدنيّة، ولو تراءَوا بالعمامة أو الدَنّيّة. وليس هذا الجهاد إلا شَرَكُ الردى، فيُضحكهم اليوم ويبكي غدا. أيذبحون المحسنين بالمُدَى؟ فأين هذا الحكم وفي أيِّ الهدى؟ أيجوّز هذا الفعل العقلُ السليم؟ ويستحسنه الطبع المستقيم؟ بل لبسوا الصفاقة، وخلعوا الصداقة، ونصروا الكَفَرة في زراية الإسلام، وأعانوهم على نحت الاعتراضات ورمي السهام؟ ولن يلقى الإسلام فَلَجًا بوجود هذه المجاهدين، بل وجودهم عارٌ على الإسلام والمسلمين. فالخير كله في موهم أو أن يكونوا من التائبين.

أيقتلون الناس لإعراضهم عن حكم الرحمان؟ مع أن الإعراض موجود في أنفسهم لارتكاب الفحشاء والفسق والعصيان؟ فكيف يجوز أن يضربوا أعناق الكفار، وإنهم يستحقّون أن يُضرَب أعناقهم بالسيف البتّار، بما فسقوا واختاروا عيشة الفُجّار. فإن الجهاد لو كان من الضرورات الدينية، فما معنى تركِ هذه الفَجَرة؟ ولِمَ لا يُقطع رؤوسهم بالمرهفات المذرَّبة؟ ولِمَ لا يُمزَّق لحمهم بالمُدَى

المُشرّحة؟ فإنهم فسقوا بعد الإيمان، فليُفْتِي المفتون.. أيُقتل هؤلاء بالسيف أو السنان؟ فإن أوّل غرض الجهاد قوم فسقوا بعد ما أسلموا وأظهروا آثار الارتداد، وخرجوا من حدود الأوامر الفرقانية، ونقضوا عهدًا عاهدوه أمام الحضرة الربّانية. ولا حاجة لربِّ العالمين، أن يتّخذ عضدًا زمرَ المفسدين، وإنه قادر على أن يُنزل عذابا من السماء إن كان يريد أن يُهلك الكافرين. وما للقدّوس والفاجر؟ ولا حاجة له إلى جهاد الفاسقين. وقد جرت سُنّة الله أنه ينصر الكافر ولا ينصر الفاجرَ الظالم، وكذلك اقتضت غيرة رب العالمين.

ووالله، مَن يجرّب هذه العلماءَ يجد أكثرهم كقوم يصنعون الدراهم المغشوشة، ويغطّون على ظاهرها الفضّة، ويُراءون الناس كأنها حُرْشٌ خُشْنٌ جِيادٌ حديثةُ السكّة، وليس فيها غشٌّ بل هي من السبيكة الخالصة. وكذلك تجد أكثر العالِمين. يخافون الناس ولا يخافون ربهم، وتجد أكثرهم كالعمين. ولو خافوا ربهم لفُتحت عيونهم ولصاروا من المبصرين. أهلكَهم شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع، ما بقي العقل السليم، ولا الطبع المستقيم، وصاروا كالمجانين.

يقولون: ما نحن لك بمؤمنين، وقد افترقوا إلى فِرق وليسوا بمتّفقين. والله أرسل عبدًا ليحكّموه فيما شجر بينهم وليجعلوه من الفاتحين، وليسلّموا تسليمًا ولا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضى،

وذلك هو الحَكَمُ الذي أتى، فالذين اتّبعوه في ساعة الأذى، وجاءوه بقلبٍ أتقى، وسمعوا لعنة الخلق وخافوا لعنةً تنزل من السماوات العُلى، أولئك هم الصالحون حقًّا وأولئك من المغفورين.

أيها الناس، كنتم تنتظرون المسيح فأظهره الله كيف شاء، فأسلِموا الوجوه لربّكم ولا تتّبعوا الأهواء. إنكم لا تُحِلّون الصيد وأنتم حُرُم، فكيف تُحِلّون آراءكم وعندكم حَكَم✪؟ وإن الحَكَم لرحمةٌ نزلت للمؤمنين، ولولا الحَكَم لما زالوا مختلفين. ظهر المهديّ عند غلبة الضالّين، وسُمِعَ دعاءُ ﴿اهْدِنَا﴾ بعد مِئِين، وتمّ ما قال ربكم في الفاتحة والفرقان المبين، وقد أخذ الله ميثاق المسلمين في هذه السورة، وما حذّرهم إلا من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة. فأين ذكر الدجّال وأين ذكر فتنته الصمّاء؟ أنسيَ الله ذِكْرَه عند تعليم هذا الدعاء؟ ويعلم الراسخون في العلم أن اسم الدجّال ما جاء في الفرقان، والقرآن مملوٌّ مِن ذكر فتنة أهل الصلبان، وهي الفتنة

✪ **الحاشية**: إن الآراء المتفرّقة تُشابه الطيرَ الطائرةَ في الهواء، والحَكَمُ يُشابه الحرمَ الآمن الذي يُؤمِنُ من الخطاء، فكما أن الصيد حرام في الحرم إكرامًا لأرض الله المقدّسة، فكذلك اتّباع الآراء المتفرّقة وأخذُها مِن أوكار القوى الدماغية حرام مع وجود الحَكَم الذي هو معصوم وبمنزلة الحرم من حضرة العزّة، بل يقتضي مقامُ الأدب أن تُعرَض كلُّ أمر عليه، ولا يؤخذ شيء إلا مِن يديه. منه.

العظيمة عند الله وكاد أن يتفطرنَ منها السماوات، وقد عُمّروا ألفَ سنة بعد القرون الثلاثة يا ذوي الحصاة، وأُحِسَّ خروجُهم في أوّل الأمر ككشكشة الأفعى، إذا تمدّدَ وتمطّى، ثم تزيّدَ الإحساس، حتى ظهر الخنّاس،وكان هو إلى ستّة آلافٍ، كالجنين في غلاف، فتولّدَ هذا الجنين بعد تسع مِئِين.. أعني بعد القرون الثلاثة، فعُدَّ الزمان إن كنتَ من المرتابين. إنهم قوم ينفقون جبال الذهب لإشاعة الضلالات، فهل رأيتم مثلهم في الإصرار على الجهلات؟ ولهم في أرضكم مستقرّ مع صراصر السطوات، ويريدون أن ينزعوا عنكم لباس التقوى ويلطّخوكم بالسوءات، فظهر ما كان ظاهرا من الله وتمّت أنباء الفتن والآفات، فأيّ ظلمة بقيت بعد هذه الظلمات؟ وليس دجّالكم إلا في رؤوسكم كالتخيّلات. ما أرى الزمانُ إلا هذه الفتن وبلاء هذه السيئات، وهي الفتنة العظيمة عند الله وكاد أن يتفطّرن منه السماوات، وتُهَدَّ الجبال الراسخات. قد عُمّروا ألف سنة بعد القرون الثلاثة، وأُحِسَّ خروجُهم في أوّل الأمر كالكشكشة، أعني ككشيش الأفعى، إذا تمدّدَ وتمطّى، ثم زاد الإحساسُ، حتى ظهر الخنّاس، وأشيعت الضلالة والوسواس، وكثرت الأوساخ والأدناس، وقد مضى عليه تسع مائة كتسعة أشهر وهو في الرحم كالجنين، وما سُمع منه ركزٌ ولا فحيحٌ ولا صوتٌ كالطنين، ولا أثر من الردّ على

الإسلام والتأليف والتدوين. فتلك التسع هي أيام حمل الدجّال، والتسع مخصوص بعدّة الحمل كما هي العادة في أكثر الأحوال. وإنْ شئت فعُدَّ من ابتداء انقراض القرون الثلاثة، إلى زمان يُكمِل عدّةَ التسعة. ثم تولّدَ الدجّال على رأس المائة العاشرة، أعني على رأس المائة التي هي عاشرة بعد القرون الثلاثة، وكان قبل ذلك كجنين في البطن ما تفوّهَ قطّ بكلمة، وما ردَّ على الملّة الإسلامية بلفظ ولا بفقرة، ثم خرج وصار كسيل يأتي من ماء الجبال، ويتوجّه إلى الغور والوهاد والدِحال، وصار قويًّا بَبًّا، وهيّج فتنًا لا توجد مثلها من آدم إلى آخر الأيام، وقلّب كل التقليب أمورَ الإسلام، وأكل كثيرا من وُلْدِ المِلّة، كما أنتم تنظرون يا ذوي الفطنة، وعاث في الأرض يمينا وشمالاً، وأشاع فسادًا وضلالاً، وبلّغ ديننا إلى التهلكة. ثم ظهر المسيح على رأس ألف البدر، ونزل من الله بالحربة، فجعل يستقْريه ويطلبه كما يُطلَب الصيد في الأَجَمة، وسيلقيه على باب اللُّدِّ ويقطع كلَّ لَدَدٍ بواحد من الضربة●. فلا تهنوا ولا تحزنوا وإن الله معكم إنْ كنتم معه

● **الحاشية:** أول بلدة بايعَني الناس فيها اسمها "لُدْهيانه"، وهي أوّل أرض قامت الأشرار فيها للإهانة، فلما كانت بيعة المخلصين حربةً لقتل الدجّال اللعين، بإشاعة الحق المبين، أُشِيرَ في الحديث أن المسيح يقتل الدجّال على باب اللُّدّ

بالصدق والطاعة. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّـــة، والآن أُعيـــدَ إليكم البدر في المرّة الثانية، وإنّ الفتح قريـــب ولكـــن لا بالـــسيف والملحمة، بل بالتضرّعات وعقد الهمّة والأدعية. فلا تظنّوا ظنّ السوء واسعوا إليّ كالصحابة، ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون، وصلّوا علـــى محمد خير البريّة. وإن هذه مائة كليلة البدر عِدّةً، وكليلة القدر مرتبةً، فأبشِروا ببدركم وانتظروا أيام النصرة.

بالضربة الواحدة. فاللُّدّ ملخّص من لفظ "لُدْهيانه" كما لا يخفى على ذوي الفطنة. منه.

في ذكر
أهل الجرائد والأخبار

لعلك تقول بعد ذلك إن أهل الجرائد والأخبار، يستحقّون أن يصلحوا مفاسد البلدان والديار، فأقول، رحمك الله، إنه خطأ في الأفكار. أتُبرَأُ مِن هؤلاء أمراضُ النفوس، ووساوس القسوس؟ نعم، لا شك أن هذه الصناعات تفيد قومنا لو رعَوه حق المراعاة، وتكون كهادٍ إلى مجاهل، وتقود إلى مناهل، وتكون كناصر للدينيات. وإن الجرائد مرآة تُري الغائب كالمشهود، والغابر كالموجود، وتكون الوصلةَ إلى بعض الخفايا، بل قد تُعينُ على فصل القضايا، وتُرِي الأمور القريبة والبعيدة كتقابُل المرايا، وتهّيئ كلّ عبرة لأولي الألباب، وتخبر مِن طرق النجاة والتباب، وتنبئكم كل يوم كيف تتغير الأيام، وكيف تقوى المجامع وتغور المنابع العظام، وكيف تخلو المرابط ويهوي الأمراءُ مِن إمرتهم، بعد ما أُودعتْ سرَّ الغنى أسرّتُهم، وتخبر مِن أخبار المحاربين الغالبين منهم والمنهزمين، والفائزين منهم والخائبين. ولولا الأخبار لانقطعت الآثار، وجُهِلَ الدولُ وما عُلم الأبرار والأخيار، وتقطّعت سلسلة تلاحُق الأفكار،

وتكميل الأنظار، ولضاعت كثير من آراءِ وتجاربِ أهل عقل ودهاء، وما بقي سبيل إلى تعرُّف أهل السياسات، ومعرفةِ أهل العقول والاجتهادات. ولولا التاريخ لصار الناس كالأنعام، ولضيّعوا سلسلة الأيام والأعوام، وقد سُلّمتْ ضرورته مذ سُلّتْ السيوف من أجفانها، وبُرِئَ الأقلام لجولانها، ولا نقدر على موازنة الأوّلين والآخرين إلا بإمداد المؤرّخين، وهو الذي يحمل آثار بُناةِ المجد، ويشيع أذكار أرباب الجدّ، وهو زينة للدين، وسنة الله في كتبه والفرقان المبين. والدين الذي لم يحصّله تحت أَسْرِه، ولم يصاحبه في قصره، فليس هو إلا كبيتٍ بُني في موضع يُخاف عليه من صدمات السيل، وربما يذهب السيل بمتاعه ويغادره كغبار سنابك الخيل، ومَن فقَد عصا التاريخ يمشي كأقزل، ولا تتحرك رجله مِن غير أن تتخاذل، فيُنهَب ذلك البيت مِن صول الجهل وسيله، ومَن تبوّأه يُتلِف دُررًا جمَعها في ذيله، وربما يُنسيه الشيطان ما هو كعمود الملّة، ويغادر بيتَه أنقى من الراحة، فيكون مآل هذا الدين أنه يُرمَى بالكساد، ويتلطّخ بأنواع الفساد. والدين الذي يُؤيَّد بصحف التاريخ والجرائد وضبط الأخبار، لا تُعفَّى آثاره بل يؤتي كعذيقٍ أُكُلَه كلَّ حين من أنواع الثمار، ويُخرِج كل وقت مِن معادن الصدق سبائكَ الفضة والنُّضار، وأخباره تُسكِّن القلوب

عند مساورة الهموم والكرب، وتقصّ قصص المصابين على القلب المكتئب، وتشدّد الهمم للاقتحام، في الأمور العظام، وتشجّع القلوبَ المزءودة بنموذج الفتيان الكرام، فإن نموذج الفتيان والشجعان، يقوّي القلوب ويزيد جرأة الجنان. فوجب شكرُ الذين يعثرون على سوانحِ زمنٍ مضى أو على سوانح أهل الزمان، ويُخبِرون عن ضعف الإسلام وقوّة أهل الصلبان. وكم من جهالة مسّتْ قومَنا من قلّة التوجّه إلى التواريخ وأخبار الأزمنة والديار، وعرَض عليهم النصارى بعض القصص محرّفين مبدّلين كما هو عادة الأشرار، وأهلكوهم وبلّغوا أمرهم إلى البوار والتبار، وطمعوا في إيمانهم، بل جذبوا فوجًا منهم إلى صلبانهم، وهذا أمر يزيد بَلْبال العاقلين، ويهيّج الأسفَ على عمل المفسدين.

ثم مع هذه الفضائل، مالَ أكثر أهل الجرائد في زمننا إلى الرذائل، وجمعوا في أنفسهم عيوبا سفكتْ جميع ما هو من حسن الشمائل. ما بقي فيهم ديانة، ولا صدق وأمانة. يسيل من أقلامهم سيل الأكاذيب، ويسفكون دم الحق عند الترغيب والترهيب. يحمدون لأغراض، ويسبّون لأغراض، وجعلوا أهواءهم قِبْلتَهم في كل توجّه وإعراض، وازدراءٍ وإغماض. يتقاعسون مِن مُبارز ويصولون على أحراض. يكذبون كثيرا وقَلّما يصدقون، وفي كل واد يهيمون.

ليس فيهم مِن غير خلّابة العارضة، والهــذرِ عنــد المعارضــة. لا يقدرون على عذوبة الإيراد، مِن غير كذب وهزل وتركِ الاقتصاد. ولا يمسّون نفائس الكلمات، إلا بمزج الأباطيل والجهلات. يبغون نزهةَ سوادهم بالهزليات، ويستميلوهم بالمضحكات والمبكيــات. ويريدون اختلاب القلوب، ولو كان داعيا إلى الذنوب. ويقولــون كل ما يقولون رياءً أو استمالةً للأعوان، لينهلّ نَدَى أهلِ الثــراء والثروة عليهم وليرجعوا بالهَيل والهَيلَمــان، وليتــسنوا قيمتــهم، ويستغزروا دِيمتهم، ولذلك يرقبون ناديَهم ونــداهم، وإنْ خُيّبــوا فيلعنون مَغْداهم. وكثير منهم يعيشون كالــدهريين والطبيعــيين، وينظرون الدينَ كالمستنكفين، بل أعينهم في غطاء عند رؤية جمال الملّة، وقلوبهم في عيافة عند هذه الجلوة. لا يرون الكــذب سُــبّةً، ويجعلون لَبِنةً قُبّةً، ولن يُتركوا سُدًى، وإنّ مع اليوم غدًا. وأرى أن أَبْخرة الكبر سدّت أنفاسهم، وهدمت أساسهم، وترى أكثــرهم كصدف بلا دُرٍّ، وكسُنبلة من غير بُرٍّ. يقومون لتحقير الــشرفاء، لأدنى مخالفة في الآراء، وتجد فيهم مَن اتخذ سيرتَه الجفاء، وإلى مَن أحسنَ إليه أساء، وإذا رأى في مصيبةٍ الجارَ، فآذى وجفا وجــارَ، وما رحم وما أجارَ.

فكيف ينصر الدينَ قوم رضوا بهذه الخصائل، وكيــف يُتوقَّــع

فيهم خير بتلك الرذائل؟ إلا الذين صلحوا ومالوا إلى الـــصالحات، فيُرجى أن يأتي عليهم يوم يجعلهم مِن حَفَدة الدين، ومن الناصرين بالصدق والثبات.

في ذكر الفلاسفة والمنطقيّين

لعلك تقول بعد ذلك إن الفلاسفة والمنطقيّين يقدرون على أن يصلحوا مفاسد هذا الزمان، فإنهم يتكلّمون بالحجّة والبرهان، ويصلون إلى نتيجة صحيحة بعد ترتيب المقدِّمات، ولا يبقى الإشكال بعد شهادة الأشكال في المعضلات.

فنقول إن هذه العلوم مفيدة بزعمك مِن غير شك في بعض الأوقات، وتُثبِتُ خيانةَ مَن خان ومان وتُنجي من الشبهات، ومَن تعلّمها يصير بيانه موجَّهًا وحُلُوَّ المذاقة، ويتراءى يراعُه مليحَ السياقة، وإنّ أهلها يزيد رعبًا على الكافرين، ويطّلع على خيانة المفسدين، وبها يُزيِّن الإنسان روايته، ويستشفّ كلَّ أمر وينقّد درايته، ويبكّت بالحجّة كلَّ من يعوي، ويشوّق الآذان إلى ما يروي، وينطق كدرر فرائد، ولا يكابد فيها شدائد، ولا يخاف عند النطق رُعْبَ مانع، ولا يأتي بِنِيٍّ غيرِ يانع، ويقتحم سُبل الاعتياص، ويسعى لارتياد المناص، وربما يفكّر ويعكف نفسه للاصطلاء، لينجي نفوسًا من جهد البلاء.

هذا قولك وقولُ مَن يشابه قلبُه قلبَك، ولكن الحق أن هؤلاء من

الفلاسفة والحكماء، وأهل العقل والدهاء، لا يقدرون على دفع هذا البلاء، بل هم كبلاء عظيم لأبناء الإسلام والطلباء، وكلّ ما زَقُّوا صبيانَ المسلمين، فهو ليس إلا كالسُّموم، وأخرجوهم من رياح طيبة وتركوهم في السَّموم. بئسما علّموا وبئسما تعلّموا.

في ذكر
مشايخ هذا الزمان

لعلك تقول إن مشايخ هذا الزمان، الذين عُدّوا من أولياء الرحمان، هم قوم مصلحون، فليحفِدْ إليهم المسلمون، فإنهم فانون في حب حضرة الكبرياء، ولا يضيّعون الوقت في الزهو والخيلاء، بل يريدون أن ينتهج الناس مهجّة الاهتداء، ويُنقَلوا من فِناء الأهواء إلى مقام الفناء، وقد آثروا تلاوة القرآن على اللهو بالأقران. تراهم جالسين في الحجرات، منقطعين إلى رب الكائنات.

فاسمعْ مني.. إنّا نؤمن بوجود طائفة من الصلحاء في هذه الأمّة، ولو كان الناس يكفّرونهم ويؤذونهم بأنواع الفِرْية والتهمة، ولكنّا نجد أكثر مشايخ هذا الزمان، مرائين متصلّفين متباعدين من سبل الرحمان. يُظهِرون أنفسهم في المجالس كالكبش المضطمِر، وليسوا إلا كالذئاب أو النمر. يحمدون أنفسهم متنافسين، ويقولون إنّا أهل الله ما أطعنا مُذْ يَفَعْنا إلا ربّ العالمين، وإن نفوسنا مطهّرة، وكؤوسنا مُتْرَعة، ونحن من الفقراء، والمتبتّلين إلى الله ذي العزّة والعلاء. ولم يبق فيهم كرامة مِن غير ذرف الغروب، مع عدم رقّة القلوب. وما

بقي بدعة إلا ابتدعوها، ولا مكيدة إلا تقمّصوها. ولا يوجد في مجالسهم إلا رقص يُمزَّق به الأردية، ويدمي الأقفية. وبما وسعت الدنيا عليهم بُدّلتْ عرائكُهم، وصار مصلّى الحجرات أرائكَهم، فهذا هو سببُ نقيصة رويّتِهم ودهائهم، وطُرقِ إباحتهم وقلّة حيائهم. وإن الله إذا سلب من نفسٍ التقوى الذي هو أشرف النِّعم، فجعل تلك النفسَ كالنَّعَم، وإذا ختم على قلب نزَع منه نكات العرفان، وجعله كجبانٍ وحيلَ بينه وبين شجاعة الإيمان، فيصبحون كالنسوان لا كالفتيان، ولا يبقى فيهم مِن غير حُلِيِّ النسوة، مع شيء من الخيلاء والنخوة، ويُنزَع عنهم لباس الحِكَمِ البارعة، والكلمِ البليغة الرائعة، ولا يُعطَى لهم حظّ من مِسْك المعارف وريحِه الفائحة. تكدّرَ سراج الإسلام مِن تكدُّر زيتِهم، وما هُمْ إلا كراويةٍ لبيتهم. أنقضَ ظهرَهم أثقالُ العيال، فيحسبون همومهم كالجبال الثقال، ويحتالون لهم كل الاحتيال، فما لهم ولدين الله ذي الجلال. تعرف رويّتَهم برُوائهم، وخيالَهم بخيلائهم. وقد وضح بصدق العلامات، وتَوالِي المشاهدات، أنّ أكثر هذه الفقراء ليس لهم حظّ من التقاة، ولا رائحة من الحصاة. يرون انهتاكَ حرمةِ الدين ولا يخرجون من الحجرات، ولا تتوجّع قلوبهم كالحُماة، بل سَرَّهم مشاغلُهم بالأغاني والمغنّيات، والمزامير مع قراءة الأبيات، ولا

يعلمون ما جرى على أمّة خير الكائنات، وما قرأوا من مشايخهم سَبَقَ المواساةِ. يجمعون كلّ ما يُعطى ولو كان مال الزكاة والصدقات. تحسبهم أحياءً وهم كالأموات، إلا قليلا من عباد الله كذرّة في الفلوات، وتجد أكثرهم غريق البدعات والسيئات. فيا أسفًا عليهم! ما يجيبون الله بعد الممات؟ وكل ما كثُر مِن اجتراء النصارى والمتنصّرين، فلا شك أن إثمه على هؤلاء الغافلين من المشايخ والعالمين، فإن الفتن كلها ما حدثت إلا بتغافل العلماء والفقراء والأمراء، فيُسألون عنها يوم الجزاء. قالوا نحن معشر العلماء والفقراء، ثم عملوا عملا غير صالح بالاجتراء، وطلبوا رزقهم بالمكائد والرياء. وترى بعض علمائهم تركوا شغل العلم وأخلدوا إلى الأرض وفِكر الزراعة، وما حفظوا مقامهم وما طلبوا فضل الله بالضراعة، وحسبوا عزازةً في الفلاحة، ونسُوا حديث الذلّة الذي ورد بالصراحة. فالحاصل أنهم اختاروا مشاغل أخرى كالحارثين، فكيف يقلِبون الطَرْفَ إلى الدين وينصرون الدين؟ وكيف يجتمع في قلب واحد فكرُ العُرمة وفكر الأُمّة؟ ومَن خرّ على دَوِيل لن يُفتح له باب الدولة.

يسألون الناس كالنائحات والنادبات، وأضاعوا القائت في فكر الأقوات. وترى بعضهم يرهنون قبور آبائهم عند غرمائهم،

ليتصرّفوا فيما وُقف عليها وليأكلوا ما عُــرض علــى أجــداث كبرائهم. وإنْ قلتَ، يا عافاك الله، أحسبتَ قبرَ أبيك شيئًا يُبــاع ويُشترى، يقول اسكتْ يا فضولي، لا تعلم ما نعلم ونرى. ويعُدّون إلى ألفٍ مِن كرامات أسلافهم، وما يخرج دُرٌّ مِن خِلْفِهم مِن غير إخلافهم. يدورون برُكْوةٍ اعتضدوها، وعصا اعتمدوها، وسُــبحةٍ عدُّوها، ولِحًى طوّلوها ومدّوها، وحُلَــلٍ حــضّروها، وبَــشرةٍ نضّروها، كأنهم أبدال أو أقطاب، ثم يظهر بعد برهة أنهم كلاب أو ذئاب، وغايةُ هِممهم جِراب، تُملأُ فيه دراهم أو قَسْب وكِنــاب. لا تجد فيهم علامة مِن فقرهم من غير الذوائب المرسلة إلى تحــت الآذان، كمثل العلماء الذين لا يعلمون مِن غــير رســم الإمامــة والأذان. ولا تجد في حجراتهم أثرًا من بركات، بل تجد كل أحــد أبا أبي زيد في كذب وهَناتٍ. يأكلون أموال الناس بادّعاء القُطْبيّة والبَدَليّة، ولا يعلمون مِن غير طواف القبور والبدعات الــشيطانية. وبعضهم في المجامع يتغنّون، وكمثل وليدةِ المجالس يرقصون، وعلى رأس كل سنة لتجديد البدعات يجتمعون. تجد فيهم مكيدة السنّور والفأرة، وسُمّ الحيّة والجَرارة. لا يوجد فيهم من الديانة إلا اسمها، ولا من الشريعة إلا رسمها. تركوا أحكام الله ذي الجلال، وخرقوا شريعة أخرى كالمحتال، ونحتوا من عند أنفــسهم أنــواع الأوراد

والأشغال، لا يوجد أثرها في كتاب الله ولا في آثار سيد النبيين وخيرِ الرجال، ثم يقولون إنّا نؤمن بخاتم النبيين، وقد خرجوا من الدين كإخوانهم من المبتدعين. أَنَزَلَ عليهم وحيٌ من السماء فنُسِخَ به القرآن وسُنّة سيّد الأنبياء؟ كلا.. بل اتّبعوا الشياطين، وآثروا الإباحة وأهواءِ النفس على ما أنزل أرحمُ الراحمين، وجاءوا بمحدَثات خارجة من الدين، وأحدثوا بدعات بعد نبيِّنا المكين الأمين، وبدّلوا حُللاً غيرَ حُلل المسلمين، وقلّبوا الأمور أكثرَها كأنهم ليسوا من المؤمنين. المزامير أحبُّ إليهم من تلاوة القرآن، ودقاقير الشعراء أملحُ في أعينهم من آيات الله الرحمان. خرجوا من الدين كما يخرج السهم من القوس، وداسوا أوامر الله كل الدوس. ما ترى فيهم ذرّة من اتّباع السُنّة، ولا كفتيل من السِير النبوية. وكثير منهم فتحوا أبواب الإباحة، وأَوَوا إلى عقيدةِ وحدة الوجود ليكونوا آلهة وليستريحوا من تكاليف العبادة. يقولون إن كثيرًا من الناس رأوا مِن دعائنا وجهَ الأهواء، ليُظَنَّ أن الأمر كذلك وهُمْ من الأولياء، وليسعى الناس إليهم بدارهم كما يسعون إلى الصلحاء. وإذا قُرِئ عليهم كتاب الله أو قول رسوله لا يُطرِبهم شيء من ذلك، ثم إذا قُرِئ بيت من الأبيات فإذا هم يرقصون. ومَن لعنه الله فمَن يفتح عيونه؟ فليعملوا ما يعملون.

في ذكر
طوائف أخرى من المسلمين

قد سمعتم مِن قبل ذكر أعيان الإسلام، ورجالهم الكرام، فلعلكم تظنون أن عامّتهم معصومون من السيئات.

فاعلموا أنهم كمثل كبرائهم ما غادروا شيئا من ارتكاب المعاصي والمنهيّات، وتراهم مسلوبَ الهمّة، كثيرَ النهمة، هالكين مِن سمّ الغفلة. يأكل بعضهم بعضًا كدُود العَذِرةِ، ويتركون أوامر الله من غير المعذرة. قد فشا الكذب بينهم والفسق والفحشاء، والبخل والغِلّ والشحناء. يشربون كأسًا دِهاقا من الصهباء، ويصبحون في القَمْر والزَمْر بترك الحياء. يقولون نحن المسلمون ثم لا يتوبون من نجاسة الدِّنان، كأنهم لا يؤمنون بالدّيّان. يكذبون بأدنى طمع في الشهادات، ويجاوزون حدَّ العدل عند المعادات. نسوا شروط التقاة، وذهلوا حقوقَ المؤاخاة، ومرضوا بمرض لا ينفعه أَسِيٌّ ولا فلسفيّ، وما استعصم منه أَلْمَعِيٌّ ولا غبيّ، حتى عاد زمان الجاهلية بعد ذهابه، وفُقد الماء وخُتِل كلُّ امرئ بسرابه، وظهرت في الأعين خيانتُه، وفي الألسن خيانتُه، وفي الزهادة خيانته، وفي العبادة خيانته. وما بقي

جريمة إلا وهي توجد في المسلمين، وجمعوا في أعمالهم إتلافَ حقوق الله وحقوق المخلوقين. يوجـــد فـــيهم الـــسارقون والـــسفّاكون، والمزوّرون والكذّابون والزانون، والأســـارى في عـــادات الفـــسق والفحشاءِ والخائنون الجـــائرون، وعَبَـــدةُ القبـــور والمـــشركون، والعائشون في حلل الإباحة والدهريون. ولا يوجد جريمة إلا ولهـــم سهمٌ فيها كما أنتم تعلمون، وإنْ كنتَ تشكّ فاسألْ حَدّادَ ســـجنٍ من السجون.

في ذكر
الفتن الخارجية

إن أكبر الفتن في هذه البلاد، فتنة الإلحاد والارتداد، وترون كثيرا من أهل الردّة يمشون في بلادنا كالجراد المنتشرة. دِيسَ المسلمون تحت أقدام القسوس، وقُلّبت قلوبهم وجُعلت طبائعهم كالثوب المعكـــوس، وشُغفوا بمكائد أهل الصلبان، ومسائل العصمة والكفّارة والقربـــان. وترون أنهم يرغّبونهم في دينهم بكل ذريعة وأداة، ولو بفتاة، ويجذبون كلَّ ذي مجاعة وبؤسَى، إلى إلهٍ نُحِتَ بعد موسى، فيجيئهم كلُّ مـــن ارتاد مُضيفًا، ليقتاد رغيفًا. ويسوق الجهلاءَ حادِي السَّغَبِ، إلى البِيَع التي هي أصل البوار والشغب. ويرغّبونهم في خفضِ عيشٍ خَـــضِلٍ، وكانوا من قبل كابن سبيلٍ مُرمِلٍ، وكان الطَوى زاد جَوى الحـــشا، فآثروا الرغفان على الدين كما ترى، وشربوا من كأسهم، وتلطّخوا من أدناسهم. وإنهم دخلوا ديارنا كطارق إذا عَرى، فنوّموا الأشقياء ونفَوا عن السعداءِ الكَرى، وضلّ كثير من تعليماتهم، ولُـــدِغوا مِـــن حَيَواتهم، حتى صُبّغوا بصبغتهم، ودخلوا فِناء ملّتهم، وما كان فـــيهم رجل ينفي ما رابَهم، ويستسلّ السهم الذي انتابهم. ووسّعوا الحريّـــة

كل التوسيع، وفرّقوا بين الأمّ والرضيع، وارتدّ فوج من المسلمين، وكذّبوا وشتموا سيّد المرسلين. وترون الآخرين قد قاموا لتوديع الإسلام، وتكذيب خير الأنام. عُكمت الرحال، وأَزِفَ الترحال. وقد أظهروا شعار الملّة النصرانية، ونضَّوا عنهم كل ما كان من الحلل الإيمانية. والذين تنصّروا ما تركوا دقيقة من التحقير والتوهين، وأضلّوا خلق الله كالشيطان اللعين. فالذين كانوا من أبناء المسلمين وحَفدتهم، صاروا من جنودهم وحَفدتهم، وأكملوا أفانينَ الكيد، ليتحاشوا لهم كل نوع الصيد.

ولا شك أنهم أفسدوا إفسادًا عظيمًا، وجعلوا إلهًا عظمًا رميمًا، وخدعوا جهلاءَ الهند بطلاوة العلانيّة، وخبثة النيّة، وضيّعوا دُرر الإسلام بروثٍ مُفضَّض، وكنفٍ مُبيَّض. وصرفوا الناس من الهداية إلى الضلال، ومن اليمين إلى الشمال. يُصلِتون ألسنَهم كالعَضْب الجرّاز، ويتركون متعمّدين طريق التعظيم والإعزاز. وبِيَعُهم مُناخ للعِيس، ومَحطّ للتعريس. وما ترى بلدة من البلاد إلا وتجد فيها فوجا من أهل الردّة والارتداد، وقد تنصّروا بسهمٍ من المال لا بالسِّهام، وكذلك أُغِيرَ على ثُلْثِ ملّة الإسلام، وسُلب منّا أحبابنا وعادى مَن واخى، ومُطرنا حتى صارت الأرض سُوّاخى. داخُوا بلادنا، وأحرقوا أكبادنا، وأفسدوا أولادنا.

وإنهم فِرقٌ ثلاث في الفساد، وفي مراتب الارتداد: فِرقة تركوا بالجهرة دينَ الأجداد.

وقوم آخرون ترى صورهم كالمسلمين وقلوبهم مجذومةٌ من الإلحاد. قرأوا العلوم الجديدة، وأكلوا تلك العصيدة، وصاروا كالملحدين. لا يصومون ولا يصلّون، بل تراهم على المتعبّدين الصائمين ضاحكين، فهم أقرب إلى الإلحاد من الإيمان، وإلى الشيطان من الرحمان. لا يؤمنون بالحشر ولا بالجنة والنار، ولا بالملائكة ولا بوحي الذي هو مدارُ شريعةِ نبيّنا سيّد الأخيار. دخلوا في بطن فلاسفة النصرانيين، فما خرجوا منه إلا في حُلل الملحدين. وثِقوا بوميضهم وهو خُلَّبٌ، واغترّوا بصدقهم وهو قُلَّبٌ. اسودّت صدورهم كأنها ليلة فتيّةُ الشباب، غُدافيّةُ الإهاب، وما بقيت الآذان ولا العيون، وغشِيهم كِبْرُ الفلسفة كما يغشى الجنونُ. ويقولون إنّا نشرب النُقاخ، والعامّةُ لا يتجرّعون إلا الأوساخ.

وقوم دونهم لبسوا لباس النصرانيين، ويقولون إنّا نحن من المسلمين، ومع ذلك فرغوا من الصلاة والصيام، وإنْ كانوا لا يضحكون على الإسلام. لا ترى شيئا معهم مِن حُلل أهل الإيمان، بل ترى شعارهم كشعار أهل الصلبان. لا يتزوّجون إلا بناتِهم، ولا يحمدون إلا حصاتَهم. شرَوا بالدنيا الشرعَ والورع، كرجُلٍ أجبأَ الزرع. وإذا أمعنتَ النظر في وسمهم، وسرّحت الطرف في ميسمهم، ما ترى على

وجوههم آثار نور المؤمنين، ولا سَمْتَ الصالحين. فهؤلاء أحـــداثُ قومنا يُتّكَأ عليهم في الأيام المستقبلة، ويُذكَرون بالثناء والمحمدة؟

وترون الإسلام في زماننا هذا كأسيرٍ يُحبَس، أو كدَريّةٍ تُدْعَس. والذين يقرأون في مدارس القسوس من الصبيان، تـــرى أكثـــرهم يشابهون أهلَ الصلبان. تركوا النظيف، وآثروا الجِيـــف، وتقمّـــأُوا رَوْثَ الضلالة، كما كانوا يتقمّأون عظام العلوم المروّجـــة، ومـــا خرجوا من المدارس حتى خرجوا من الملّة. وعلى الخَـــرْءِ تَـــداكئوا، وعلى القذر تكأْكأوا. وإن الذين يدرِّسون من النصارى شرُّهم أكبر وتأثيرهم أعظم من قسوس آخرين، وإن أكثر صبيان ديننا يقـــرأون في مدارس هذه المضلّين، فإنّا لله على حالة المسلمين.

وتأتي نساؤهم المحرَّرات في بيوت أهل الإسلام، ويوسوســـنَ في صدورهن بأنواع الحِيل والاهتمام، وقد يرتد أحد منهن فيُخرِجونها كالسارقين، فيجري ما يجري على قلوب المتعلقين.

وقد يحصل لهم كثير من يتامى هذا الدين، فينصّرونهم وهم ألوف عندهم ويزيدون كلّ يوم مِن قوم مجدبين ومن الذين ماتت آباؤهم من الطاعون أو حوادث أخرى، فقَمَشَهم القسوس من الأرضين، فلبثـــوا كرهنةٍ لديهم حتى صاروا من المتنصّرين. وعُرِضَ علـــيهم الخنـــــزير فأكلوه، وقيل لِسَبِّ المصطفى فسبُّوه، وصاروا أوّل الكافرين.

في علاج هذه الفتن

قد ثبت مما سبق أن هذه الفِرق كلَّهم لا يقدرون على إصلاح الناس، ولا على دفع الوسواس الخنّاس، ولا اصْطيدَ بهم إلى هذا الحين صيدَ المراد، وما ارتقى الناس بهذه الذرائع إلى ذُرَى الصدق والسَّداد، وما رأيتم أحدًا منهم أصلحَ المفسدين، أو احتكأَ قولُه في قلوب المجرمين، أو كفَأ وعظُه من المنكرات، وجعل مِن التوابين والتوابات. وكيف يُرجى منهم صلاح وإنّ قلوبهم فسدت، وصارت كقِرْبةٍ قُضئتْ، فهل يهدي الأعمى الأعمى؟ أو يداوي الوَعِكَ مَن لا يُقلِع عنه الحمّى؟ وهل يوجد فيهم رجل يوصِل إلى نور اليقين؟ وهل يُرِي سبيلاً مَن هو من العمين؟ وهل من الممكن أن يلِج في سَمِّ الخِياط الهِرْجابُ، أو يرعى الغنم الذيابُ؟ سلّمنا أن العلماء يعِظون، ولكن لا نسلّم أنهم يتّعظون. وقبِلْنا أنهم يقولون، ولكن لا نقبل أنهم يفعلون. وهل عيبٌ أفحشُ من القول مِن غير العمل؟ وهل يُتوقَّع أن يكون خائبٌ مَظْهَرًا للأمل؟ فاتركوا كل أحد من هذه الفِرق مع كيده وكَدِّه، وتَحسّسوا لعل الله يأتي أمرًا مِن عنده.

ووالله إن هذه فتن لن تصلح بهذه الذرائع ولا بشورى ومُنتدى، ولا بتجمير البعوث على ثغور العدا، ولا بأُساةٍ آخرين، وإنْ هم إلا من المتصلّفين. وإنّ مَثل جاهلٍ يتصلّف بعلمه وعرفانه، كمَثل جروٍ صَأْصَأَ قبل أوانه، أو كذياب يسابق البازيَ في طيرانه.

فاعلموا يا مُواسي المسلمين، وأُساةَ المتألّمين، أن علاج القوم في السماء، لا في أيدي العقلاء. اقرأوا قصص السابقين في الكتاب المبين، وما بُدّلتْ سُنن الله في الآخِرين. أتطلبون علاج المرضى من ملوككم وعلمائكم ومشايخكم وعقلائكم؟ عفا الله عنكم، لا أفهم غرض آرائكم. يا سبحان الله! أيّ طريق اخترتم؟ وإلى أي شِعْبٍ مررتم؟ أوَ تظنّون أن الوقت ليس وقت الإمام، وهو بعيد من هذه الأيام؟ وترون بأعينكم غلبة الضلالة، وطوفان الجهالة، فما لكم لا تعرفون الأوقات، ولا تتألّمون على ما فات؟ وإنْ قيل لكم إن فلانا قد بلغ العشرين وشابهَ البرزوغَ، فتفهمون مِن غير توقّف أنه ترعرعَ وناهز البلوغ، فما لكم لا تفهمون مواقيتَ نُصرة الدين، ولا تتركون الشك مع رؤية أنوار اليقين؟ وترون ميسم الإسلام كمسيمِ مريضٍ ديسَ تحت الآلام، وتشاهدون انكفاءَ كمالِ الملّة إلى إكمال الذلّة، وقد نُسبتْ من المزايا إلى

الخطايا، ثم لا يبرح لكم ما نزلتْ من البلايا. ما نرى فيكم خدّام الدينِ عند طوفان هذه الضلالة، ولو طُلبوا على الجُعالة، بل كل نفس ذهبتْ إلى أهوائها، وزعمت أن الخير في استيفائها. نسوا وصايا الرحمان، التي لُقّنوها في القرآن، وتبيّن أنهم استضعفوا سفارة الرسول المقبول، واستشعروا تكذيبَ كتاب الله وردّوا كل ما جاءهم من المنقول، واتّخذوا الجِدّ عبثًا، وحسبوا التِبْرَ خَبَثًا. وأَيْمُ اللهِ، لطالما فكّرتُ في أحوالهم، وولجتُ أَجْمةَ خيالهم، فما وجدتُ فيها مِن غير أوابد الشهوات، وسِباعِ الظلم والظلمات. يجوبون المَوامي من غير مصاحبةِ خفير، ويبارزون العدا من غير استصحابِ جفير، ولا ينفي كَلِمُهم ما رابَ المرتابين، ولا يستسلّون سهم المعترضين، بل يوافقون النصارى في كثير من الضلالات، ويرافقونهم في أكثر الحالات، بَيْدَ أن النصارى جهروا بذاتِ صدورهم، وبرِح خفاؤهم وما في خُدورهم، وأما هؤلاء فلا يُقرّون بما لزِمهم من العقائد، وإنْ هم إلا كشَرَكٍ للصائد. يقابلون القسوس بوجه طليق، كحبيب ورفيق، لا بلسان ذليق، وقلب عتيق. وساءهم أن يُستدلّ من القرآن، وسَرَّهم أن يقال روى الفلان عن الفلان. يريدون الرُطب بالخُطب، ليملأوا بطون الزغب. يؤْثرون الثرائد على الفرائد، ولا يبالون مَن عصى دينَ

الله بعد أكل العصائد. يبكون على عيْـــشهم المكـــدَّر بالـــصبح والمساء، ولا يقلعون عن البكاء، ولا ينـــزعون إلى الاســـتحياء، ولا ينتهجون سُبل الهدى، ولا يذكرون وَشْكَ الرَّدى، وإذا دُعوا إلى القِرى، يريدون أن يأكلوا القُـــرى. يقولـــون بألـــسنهم لا تتّخذوني كَلاًّ، ولا تصنعوا لأجلي أكلاً، والقلبُ يبغي الحلـــوى، واللوزينج وما هو أحلى، وكلّ ما هو أجرى في الحلوق، وأمضى في العروق، واللحمَ الطريّ، والكبابَ الشاميّ، ومع ذلـــك مـــاءً يُشَعشَعُ بالثلج ليقمَع هذه الصارّة، ويفثَأَ تلك اللُقَمَ الحارّة. ثم مع ذلك يستشعرون أن لا يودَّعوا إلا بدينارين، أو يُدفَع إليهم ما في البيت بغضّ العينين. وإذا قُدّم إليهم طعامٌ في مذاقه كلام، فيلعنون من دعا إلى القِرى عشرة لعنة، ويذكرونه في كل ساعة ويـــسبّون كبرًا ونخوة، بما لم يحصّل أُمْنيّتَهم ولم يُرْضِ طـــويّتَهم. وكـــذلك كثرت مضرّاتهم، وانتشرت معرّاتهم. فكيف يُرجى صلاح الدين من هذه الناس؟ وهل يُرجى سيرة الملائك من الخنّاس؟ بـــل هـــم أعداءٌ للدين في بُردةِ صديق، الوجهُ كموحّدٍ والقلب كزنـــديق. يستقْرون عيسى في الأحياء●، ويُنـــزّلونه من السماء، ويعلمـــون

● **الحاشية**: كذلك يقولون إن الطير ليست مِن خلق الله فقط، بل بعضها من خلق الله، وبعضها من خلق عيسى، ففكِّروا ما الفرق بينهم وبين النصارى! منه.

أنه قد مات ولحِق الأموات، وخبرُ موته موجود في الفرقان، فبأيّ شهادة يؤمنون بعد القرآن؟ ويقولون إنه هو المعصوم من مسّ الشيطان، ونسوا ما قال ربنا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. لا نعلم ما هذه الدناءة، وهذه الغفلة؟ أليس سيّدُ الرسل من المعصومين؟ بلى، وإن لعنة الله على الكاذبين.

يا معشر الغافلين! إلامَ تنتظرون عيسى وقد قَرُبَ يوم الدين؟ أتزعمون أنه من الأحياء، بل هو من الميّتين. وإني عارفٌ بقبره فلا تكونوا من الجاهلين. اجتمِعوا إليّ أَهْدِكم إن كنتم طالبين. وليس ذنب تحت السماء أكبرَ من القول بحياة عيسى، وكادت السماوات أن يتفطّرن به، بل هو من الهالكين. ووالله إنه هو الحق، وإني أُنبِئتُ من القرآن ثم بوحي رب العالمين. ومن قال إنه حيّ فقد افترى على الله وخالف قول الكتاب المبين. وإنكم تنتظرون نزوله من مدّة مديدة، فأين فيكم قريحةٌ سعيدة؟ انظروا أيها المنتظرون الغالون، هل وجدتم ما أردتم وما تطلبون؟ وهل أنتم على ثقة من أمر تعتقدون؟ وهل اطمأنّت عليه قلوبكم أيها المعتدون؟ بل تنصرون النصارى وتؤيّدون. وارتدّ كثير من الناس بأقوالكم فلا تتركون هذه الكَلِمَ ولا تنتهون.

ثم أنتم تقولون إنّا نجهد كلَّ الجهد للإسلام، فأيّ إسلام

تريدونه يا معشر الكرام؟ أتريدون إسـلام الـشيعة أو إسـلام البياضية، الذين لا نجاة عندهم مِن دون ورد اللعنة؟ أو تعنون من هذا اللفظ الفِرقة الوهابية، أو المقلّدين أو المعتزلة، أو تعنون إسلام المبتدعين من الفقراء والسالكين مسلك الإباحة والفحـشاء، أو إسلامَ الطبيعيين الجاحدين بالملائكة والجنة والنار والبعث وخوارق الأنبياء، واستجابةِ الدعاء، والضاحكين على الـصوم والـصلاة والمؤْثرين طرقَ الأهواء، أو إسلام آخر في قلبكم ما أعثرتم عليـه أحدًا من الأحبّاء والأعداء؟

أيها الأعزّة! فكّروا في أنفسكم ما حالة الزمان، وقد افتـرق الأمّةُ إلى فِرَقٍ لا يُرجى اتحادهم إلا مِن يد الرحمن. يكفّر بعضهم بعضا، وربما انجرّ الأمرُ مـن الجـدال إلى القتـال. ففكِّـروا.. أتستطيعون أن تُصلحوا ذاتَ بينهم وتجمعوهم في بِرازٍ واحد بعد إزالة هذه الجبال؟ كلا.. بل هي أقـوال لا تقتـدرون عليهـا. أتقدرون على فعل هو فعل الله ذي الجلال؟ ولن يجمع الله هؤلاء إلا بعد نفخ الصُّور من السماء، وإذا نُفخ في الـصُّور فجُمعـوا جمعًا، فليسمعْ من يستطيع سمعًا. ولا نعني بالصُّور ههنا ما هـو مركوز في متخيّلة العامّة، بل نعني به المسيحَ الموعود الذي قـام لهذه الدعوة. وليس صُورٌ أعزَّ وأعظمَ من قلوب المرسـلين مـن

الحضرة، بل الصور الحقيقي قلوبهم تنفخ فيها ليجمعوا الناس على كلمة واحدة مِن غير التفرقة. وكذلك جرتْ سُنّة الله أنه يبعث أحدًا من الأمّة لإصلاح الأمّة، وليجذب الناس به إلى سبله المرضية، ولا يترك الحق كالأمر الغُمّة.

لكن مع ذلك آفة أخرى، وداهية عظمى، وهو أن العلاج الذي أراده الله لإصلاح هذه الآفات، ودفعِ تلك البليّات، هو أمر لا يرضى به القوم وعلماؤهم، وتنظر إليه بنظر الكراهة عوامُّهم وكبراؤهم. فإن الله بعث مسيحه الموعود عند هذه الفتن الصليبية، كما بعث عيسى ابن مريم عند اختلال السلسلة الموسوية، وكان حقًّا عليه تطبيق السلسلتين، لئلا يكون فضلٌ لسلسة أُولى وليتطابقا كتطابق النعليْن. فبعث نبيَّنا وسيّدنا محمدًا ﷺ، وجعله مثيلَ موسى وكلّمه وعلّمه ما علّم. ثم لما انقضت مدّةٌ على هجرة هذا النبي الكريم، كمثل مدّةٍ كانت بين عيسى والكليم، وافترقت الأمّة إلى فِرَقٍ وصُبّت على الإسلام مصائب وبؤسى، كما افترقت اليهود وضلّوا في زمن عيسى بعد موسى، بعث الله مثيلَ ابن مريم في هذا الزمان، ليتطابق السلسلتان، الأول كالأول والآخر كالآخر في جميع الصفات والألوان. فكان هذا مقام الشكر لا مقام الإنكار والكفران، وكان من الواجب أن يتلقى

المسلمون هذا النبأ بإقبال عظيم كالعطشان، ويحسبوه مِن أجَلّ منن الرحمن. ولكن القوم اتّبعوا أقوال الناس وكفروا بالقرآن، وما آمنوا بمثيل عيسى كما لم تؤمن اليهود بعيسى من قبل بل كذّبوا كما كُذّب في سابق الزمان، فاليوم همْ على مكان واحد في العصيان. فرقتان مكذّبتان، وقريحتان متشابهتان، كذلك ليتمّ ما قال فيهم خيرُ الإنس والجانّ. ولا يسرّهم إلا أن ينزل عيسى ابن مريم من السماء الثانية، واضعًا كفَّيْه على أجنحة الملائكة، وأن ينزل في المَهْرُودتيْن، والبُرديْن المزعفريْن، ويسوءهم أن يبعث الله مسيحَه الموعود من هذه الأمّة، كما وعد في سورة النور والتحريم والفاتحة. ومَن أصدقُ من الله قيلاً يا ذوي الفطنة؟

يقولون إن الله يحطّ عيسى من مقامه، ويكدّر صفو أيّامه، ويعيده إلى دار المحن مِن غير احترامه، وما هذا إلا بهتان، وما عندهم عليها من برهان، بل توفّاه الله وأدخله في الجِنان، كما ذكره في القرآن، وقبرُه قريب من هذه البلدان، وإنْ طلبتم المزيد من البيان، فتعالَوا أقصّ عليكم قصته الثابتة عند المسلمين وأهل الصلبان، وليس هي من مُسلَّمات فرقةٍ فقط دون الأخرى، بل أمرٌ اتفق عليه كلٌّ من كان من أولي النهى، وما كان حديثًا يُفترى. وإنّا رأيناها بنظر أقصى، وما زاغ البصر وما طغى. وثبت

بثبوت قطعيّ أن عيسى هاجر إلى مُلك كشمير، بعد ما نجّاه الله من الصليب بفضل كبير●، ولبث فيه إلى مدّة طويلة حتى مات، ولحِق الأمواتَ، وقبرُه موجود إلى الآن في بلدة "سرينكر" التي هي مِن أعظم أمصار هذه الخِطّة، وانعقد عليه إجماع سكّان تلك الناحية، وتواترَ على لسان أهلها أنه قبر نبي كان ابنَ ملِكٍ وكان من بني إسرائيل، وكان اسمه "يُوزآسف" فليسألْهم من يطلب الدليل. واشتهر بين عامّتهم أن اسمه الأصلي "عيسى صاحب" وكان من الأنبياء، وهاجر إلى كشمير في زمان مضى عليه مِن نحو ١٩٠٠ سنة. واتفقوا على هذه الأنباء، بل عندهم كتب قديمة توجد فيها هذه القصص في العربية والفارسية، ومنها كتاب سُمّي "إكمال الدين" وكُتب أخرى كثيرة الشهرة.

وقد رأيت في كتب المسيحيين أنهم يزعمون أن "يوزآسف"

● **الحاشية**: قد رأينا قريبًا مِن ألفِ مجلّدات من الكتب الطبّية، فوجدنا فيها نسخة مباركة يُسمّى "مرهم عيسى" عند هذه الفِرقة، وثبت بشهادات أطبّاء الروميين واليونانيين واليهود والنصارى وغيرهم من الحاذقين، أن هذه النسخة من تركيب الحواريين، وكتب كلهم في كتبهم أنها صُنعت لجراحات عيسى، وكذلك كُتب في قانون الشيخ أبي علي سينا. فانظروا يا أولي النهى، هذا هو الذي رُفع إلى السماوات العُلى؟ منه.

كان تلميذا من تلامذة المسيح، وقد كتبوا هذا الأمر بالتـــصريح، ولا يوجد قوم من أقوامهم إلا وهم ترجموا هذه القصّة في لسانهم، وعمّروا بِيعةً على اسمه في بعض بلدانهم. ولا شكّ أن زعم كونه تلميذا باطل بالبداهة، فإن أحدًا من تلامذة عيسى ما كان ابـــنَ ملِكٍ وما سُمع منهم دعوى النبوّة. ثم مع ذلك كان "يوزآسف" سمّى كتابه الإنجيل، وما كان صاحب الإنجيل إلا عيسى. فخُذْ ما حصحص من الحق واترك الأقاويل. وإن كنتَ تطلب التفـــصيل، فاقرأْ كتابا سُمّي ب"إكمال الدين"، تجد فيه كلّ مـــا تـــسكِّن الغليل.

ثم مِن مؤيِّدات هذا القول أن كثيرا من مدائن كشمير سُـــمّي بأسماءِ المدن القديمة.. أعني مُدنًا كانت في أرضٍ بعث المسيح وما لحِقها من القرى القريبة، كحِمْـــص، وجُلْجـــات، وأَسْـــكَرْدُو، وغيرها التي تركناها مِن خوف الإطالة.

وهذا المقام ليس كمقام تمرّ عليه كغافلين، بـــل هـــو المنبـــع للحقيقة المخفيّة التي سُمّيت النصارى لها "الضالين". ولقد سمّاهم الله بهذا الاسم في سورة الفاتحة، ليشير إلى هذه الضلالة، وليـــشير إلى أن عقيدة حياة المسيح أُمُّ ضلالاتِهم كمثل أُمِّ الكتـــاب مـــن الصحف المطهّرة. فإنهم لو لم يرفعوه إلى السماء بجسمه العنصري

لما جعلوه من الآلهة، وما كان لهم أن يرجعوا إلى التوحيد مِن غير أن يرجعوا من هذه العقيدة، فكشف الله هذه العُقدة رُحمًا على هذه الأمّة، وأثبت بثبوت بيّن واضح أن عيسى ما صُلب، وما رُفع إلى السماء، وما كان رفعُه أمرًا جديدا مخصوصا به، بل كان رفع الروح فقط كمثل رفعِ إخوانه من الأنبياء. وأمّا ذكرُ رفعه بالخصوصية في القرآن، فكان لذَبِّ ما زعم اليهود وأهل الصلبان، فإنهم ظنوا أنه صُلب ولُعن بحكم التوراة، واللعن ينافي الرفعَ بل هو ضدّه كما لا يخفى على ذوي الحصاة، فردّ الله على هاتين الطائفتين بقوله: ﴿بَل رَّفَعَه اللّهُ إِلَيْهِ﴾، والمقصود منه أنه ليس بملعون بل من الذين يُرفعون ويُكرَمون أمام عينيه. وما كان إنكار اليهود إلا من الرفع الروحاني الذي لا يستحقّه المصلوب، وليس عندهم رفع الجسم مدار النجاة، فالبحث عنه لغو لا يلزم منه اللعن والذنوب، فإن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، ما رُفع أحدٌ منهم إلى السماء بجسمه العنصري كما لا يخفى، ولا شك أنهم بعُدوا من اللعنة وجُعلوا من المقرّبين، ونجوا بفضل الله بل كانوا سادة الناجين، فلو كان رفع الجسم إلى السماء مِن شرائط النجاة، لكان عقيدة اليهود في أنبيائهم أنهم رُفعوا مع الجسم إلى السماوات. فالحاصل أن رفع الجسم ما كان عند اليهود من

علامات أهل الإيمان، وما كان إنكارهم إلا مِن رفع روح عيسى وكذلك يقولون إلى هذا الزمان. فإنْ فرضنا أن قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَه اللهُ إِلَيْهِ﴾ كان لبيانِ رفع جسم عيسى إلى السماء، فأين ذكرُ رفع روحه الذي فيه تطهيره من اللعنة وشهادة الإبراء، مع أن ذكره كان واجبًا لردٍّ ما زعم اليهود والنصارى من الخطاء، وكفاك هذا إن كنت من أهل الرشد والدهاء. أتظن أن الله ترك بيان رفع الروح الذي ينجّي عيسى مما أُفتِيَ عليه في الشريعة الموسوية، وتصدَّى لذكر رفع الجسم الذي لا يتعلّق بأمر يستلزم اللعنة عند هذه الفِرقة؟ بل أمر لغو اشتهر بين زمع النصارى والعامة، وليس تحته شيء من الحقيقة، وما حمل النصارى على ذلك إلا طعنُ اليهود بالإصرار، وقولُهم أن عيسى ملعون بما صُلب كالأشرار، والمصلوب ملعون بحكم التوراة وليس ههنا سعة الفرار، فضاقت الأرض بهذا الطعن على النصارى، وصاروا في أيدي اليهود كالأسارى، فنحتوا من عند أنفسهم حيلةَ صعود عيسى إلى السماء، لعلّهم يطهّروه من اللعنة بهذا الافتراء. وما كان مفرٌّ من تلك الحادثة الشهيرة التي اشتهرت بين الخواص والعوام، فإن الصليب كان موجبًا للعنة باتّفاقِ جميع فِرق اليهود وعلمائهم العظام، فلذلك نُحِتت قصةُ صعود المسيح مع الجسم

حيلةً للإبراء، فما قُبِلت لعدم الشهداء، فرجعوا مضطرّين إلى قبولِ إلزام اللعنة، وقالوا حمَلها المسيح تنجيةً للأمّة. وما كانت هذه المعاذير إلا كخبطِ عشواء، ثم بعد مدّة اتّبعوا الأهواء، وجعلوا متعمّدين ابنَ مريم لله كشركاء، وصار صعود المسيح وحملُه اللعنةَ عقيدةً بعد ثلاث مائة سنة عند المسيحيين، ثم تبِع بعضَ خيالاتهم بعد القرون الثلاثة الفيْجُ الأعوج من المسلمين.

واعلم، أرشدك الله، أن رسولنا ﷺ ما رأى عيسى ليلة المعراج إلا في أرواح الأموات، وإنّ في ذلك لآية لذوي الحصاة. وكل مؤمن يُرفع روحه بعد الموت وتُفتح له أبواب السماوات، فكيف وصل المسيح إلى الموتى ومقاماتهم مع أنه كان في رِبْقة الحياة؟ فاعلم أنه زورٌ لا صدق فيه وقد نُسج عند استهزاء اليهود ولعنِهم بنصّ التوراة.

لا يقال إن عيسى لقِي الموتى كما لقِيهم نبيُّنا ليلة المعراج، فإن المعراج على المذهب الصحيح كان كشفًا لطيفا مع اليقظة الروحانية كما لا يخفَى على العقل الوَهّاج، وما صعد إلى السماء إلا روحُ سيدنا ونبيّنا مع جسم نوراني الذي هو غير الجسم العنصري، الذي ما خُلق من التُربة، وما كان لجسمٍ أرضيّ أن يُرفع إلى السماء، وعدٌ من الله ذي الجبروت والعزّة. وإن كنتَ

في ريب فاقرأْ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾. فانظرْ، أتُكذّب القرآن لابن مريم واتّق الله تُقاةً. وانظرْ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾، ولا تؤذ ربَّك كما آذيتني. وقد سأل المشركون سيّدَنا ﷺ أن يرقى في السماء إن كان صادقا مقبولا، فقيل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا رَّسُولاً﴾. فما ظنُّك، أليس ابنُ مريم بشرًا كمثل خير المرسلين؟ أو تفتري على الله وتقدِّمُه على أفضل النبيين؟

ألا إنه ما صعد إلى السماء، ألا إن لعنة الله على الكاذبين. وشهد الله أنه قد مات ومَن أصدق من الله ربّ العالمين؟ ألا تفكّر في قوله عز اسمه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، أو على قلبك القُفل؟ وقد انعقد الإجماع عليه قبل كل إجماع من الصحابة، ورجع الفاروق من قوله بعد سماع هذه الآية، فما لك لا ترجع من قولك وقد قرأنا عليك كثيرا من الآيات؟ أتكفر بالقرآن أو نسيت يوم المجازاة؟ وقد قال الله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، فكيف عاش عيسى إلى الألفين في السماء.. ما لكم لا تفكّرون؟

فالحق والحق أقول إن عيسى مات، ورُفع روحه ولحِق الأمواتَ. وأما المسيح الموعود فهو منكم كما وعد الله في سورة

النور، وهو أمرٌ واضح وليس كالسرّ المستور. وإنّه "إمامُكم منكم" كما جاء في حديث البخاري والمسلم، ومن كفر بشهادة القرآن وشهادة الحديث فهو ليس بمسلم.

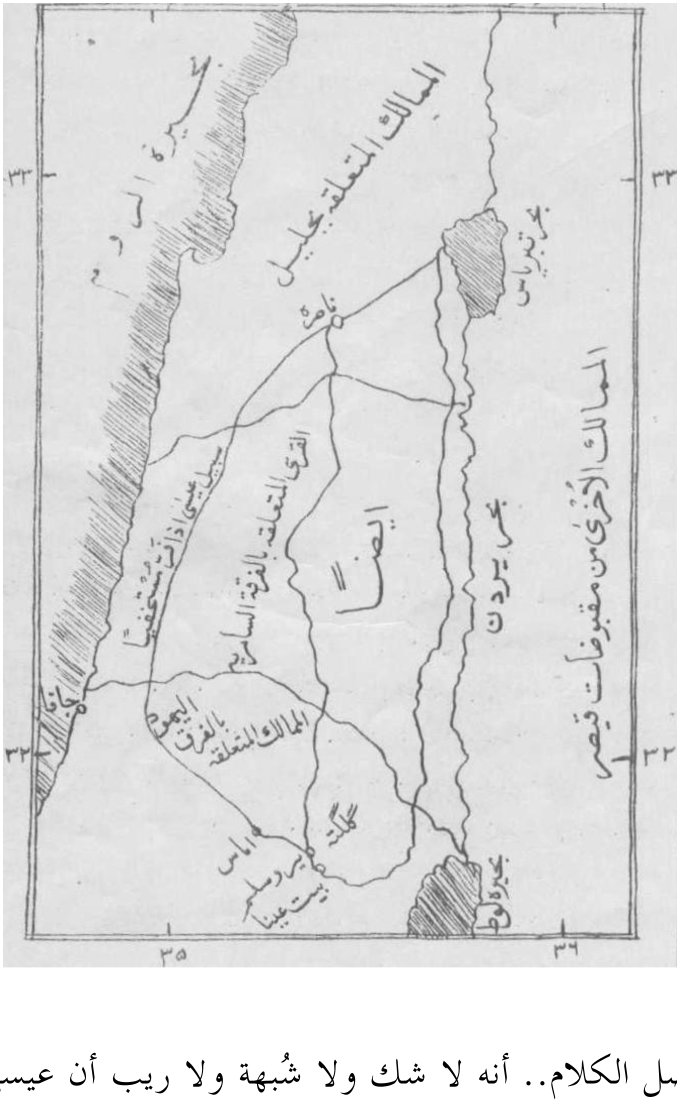
وقد أخبرنا التاريخ الصحيح الثابت أن عيسى ما مات على الصليب، وهذا أمر قد وُجِد مثله قبله وليس من الأعاجيب، وشهدت الأناجيل كلها أن الحواريين رأوه بعد ما خرج من القبر وقصد الوطن والإخوان، ومشوا معه إلى سبعين فرسخ وباتوا معه وأكلوا معه اللحم والرغفان. فيا حسرة عليك إنْ كنتَ بعد ذلك تطلب البرهان. أتظن أن سُلَّمَ السماءِ ما كان إلا على سبعين ميل مِن مقام الصليب؟ فاضطرّ عيسى إلى أن يفرّ ويبلّغ نفسه إلى سُلَّمِها العجيب؟ بل فرَّ مهاجرًا على سُنّة الأنبياء، خوفًا من الأعداء، وكان يخاف استقصاءَ خبره، واستبانةَ سرّه، فلذلك اختار طريقًا منكَرًا مجهولا عسيرَ المعرفة، الذي كان بين القرى السامرية، فإن اليهود كانوا يَعافونها ولا يمشون عليها من العيافة والنفرة، فانظرْ في صورةِ سبلِ مَوامي اقتحمها على قدمِ الخيفة، وإنّا سنرسم صورتها ههنا لتزداد في البصيرة، ولتعلم أن صعود عيسى إلى السماء تهمةٌ عليه ومِن أشنع الفِرية. أكان في السماء قبيلة من بني إسرائيل فدلَف إليهم لإتمام الحجّة؟ ولَمّا لم يكن

الأمر كذلك فأيّ ضرورةٍ نقَلت أقدامَه إلى السماء؟ وما العــذر عنده إنه لِمَ لم يبلّغ دعوته إلى قومه المنتشرين في البلاد والمحتاجين إلى الاهتداء؟

والعجب كلّ العجب أن الناس يسمّونه نبيًّا سيّاحًا وقالوا إنــه سلَك في سيره مسالكَ لم يرُضْها السيرُ ولا اهتدت إليها الطــيرُ، وطوى كلَّ الأرض أو أكثرَها ووطّأ حِمى الأمن وغــير الأمــن، ورأى كل ما كان موجودًا في الزمن، ومع ذلك يقولون إنه رُفع عند واقعة الصليب مِن غير توقّفٍ إلى السماء، وما بــرح أرضَ وطنه حتى دُعِيَ إلى حضرة الكبرياء. فما هذه التناقض؟ أتفهمون؟ وما هذه الاختلاف؟ أتوفِّقون؟

فالحق والحق أقول، إن القول الآخر صحيح، وأمّا القول بالرفع فهو مردود قبيح، فإن الصعود إلى السماء قبل تكميل الدعوة إلى القبائل كلهم كانت معصية صريحة، وجريمة قبيحة. ومن المعلــوم أن بني إسرائيل في عهد عيسى عليه السلام كانوا متفرّقين منتــشرين في بلاد الهند وفارس وكشمير، فكان فرضُه أن يُدركهم ويلاقــيهم ويهديهم إلى صراط الرب القــدير، وتــركُ الفــرض معــصية، والإعراض عن قوم منتظرين ضالين جريمة كبيرة، تعــالى شــأنُ الأنبياء المعصومين من هذه الجرائم، التي هي أشنع الذمائم.

ثم بعد ذلك نكتب صورة سبيل اختارها المسيح عند هجرتـــه وهي هذه:



فحاصل الكلام.. أنه لا شك ولا شُبهة ولا ريب أن عيسى لمّا

مَنَّ الله عليه بتخليصه مِن بليّة الصليب، هاجر مع أُمّه وبعض صحابته إلى كشمير ورَبْوتِه التي كانت ذات قرار ومَعين ومجمع الأعاجيب، وإليه أشار ربنا ناصر النبيين ومُعين المستضعَفين، في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَآ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. ولا شكّ أن الإيواء لا يكون إلا بعد مصيبة، وتعبٍ وكربة، ولا يُستعمل هذا اللفظ إلا بهذا المعنى، وهذا هو الحق من غير شك وشبهة◈، ولا يتحقق هذه الحالةُ المُقَلْقِلة في سوانح المسيح إلا عند واقعة الصليب. وليست ربوةٌ في الارتفاع في جميع الدنيا من البعيد والقريب، كمثل ارتفاع جبال كشمير وكمثل ما

◈ **الحاشية**: اعلمْ أن لفظ الإيواء بأحدٍ مِن مشتقّاته قد جاء في كثيرٍ من مواضع القرآن، وكلها ذُكر في محل العصم من البلاء بطريق الامتنان، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، وما أراد منه إلا الإراحة بعد الأذى. وقال في مقام آخر: ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ﴾. فانظروا كيف صرّح حقيقةَ الإيواء وبها داواكم. وقال حكايةً عن ابن نوح: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾، فما كان قصدُه جبلا رفيعا إلا بعد رؤية البلاء. فبيِّنوا لنا أيّ بلاءٍ نزل على ابن مريم ومعه على أُمِّه أشدّ من بلاء الصليب؟ ثم أيّ مكان آواهما الله إليه مِن دون ربوةِ كشمير بعد ذلك اليوم العصيب؟ أتكفرون بما أظهره الله وإن يوم الحساب قريب. منه.

يتعلّق بشُعَبِها عند العليم الأريب. ولا يسع لك تخطئةُ هذا الكلام من غير التصويب.

وأمّا لفظ "القرار" في الآية فيدل على الاستقرار في تلك الخِطّة بالأمن والعافية، مِن غير مزاحمة الكَفرة الفَجرة. ولا شك أن عيسى عليه السلام ما كان له قرار في أرض الشام، وكان يُخرِجه مِن أرض إلى أرض اليهودُ الذين كانوا من الأشقياء واللئام، فما رأى قرارًا إلا في خِطّة كشمير، وإليه أشار في هذه الآية ربُّنا الخبير.

وأمّا الماء المعين فهي إشارة إلى عيون صافية وينابيع منفجرة توجد في هذه الخِطّة، ولذلك شبّه الناس تلك الأرض بالجنّة.

ولا يوجد لفظُ صعود المسيح إلى السماء في إنجيل متّى ولا في إنجيل يوحنّا، ويوجد سَفَرُه إلى "جليل" بعد الصليب، وهذا هو الحق وبه آمنّا. وقد أخفى الحواريون هذا السفر خوفًا من تعاقُب اليهود، وأظهروا أنه رُفع إلى السماء ليكون جوابًا لفتوى اللعنة وليصرف خيالَ العدوّ الحسود. ثم خلف مِن بعدهم خَلْفٌ كثير الإطراء قليل الدهاء، وحسبوا هذه التورية حقيقةً كما هي سيرة الجهلاء، وجعلوا ابن مريم إلهًا بل أجلسوه على عرش حضرة الكبرياء. وما كان الأمر إلا من حِيَل الإخفاء، وما كان معه

مقدارُ شبر من الارتقاء. وقد سمعتَ أنه مات في أرض كـــشمير، وقبره معروف عند صغير وكبير، فلا تجعلوا الموتى إلهًا واستغفِروا لهم ووَحِّدوا ربّكم الجليل القدير، تكاد السماوات تتفطّرن★ من هذا الزور. ووالله إنّه ميّت فاتّقــوا الله ويومَ النشــور، وصــلّوا على محـــمدٍ الذي جـــاءكم بالنور، وكان عـــلى النور ومـــن النور.

وقد ذكرنا أن المسلمين يقولون إن القبر المذكور قبر عيـــسى، وإن النصارى يقولون إن هذا القبر قبر أحد من تلاميذه، فـــالأمر محصور في الشقَّيْن كما ترى، ولا سبيل إلى الشقّ الثاني، ولـــيس هو إلا كالأهواء والأماني، فإن الحواريين ما كـــانوا إلا تلامـــذة المسيح ومن صحابته المخصوصين، ومن أنصاره المنتخبين، ومـــا سُمِّيَ أحد منهم ابنَ ملِكٍ ولا نبيًّا وما كانوا إلا خُدّام المـــسيح، فتقرّرَ أنه قبر نبي الله عيسى وأيّ دليل تطـــلب بعد هذا الثبـــوت الصريح؟ فاسألْ قومًا رفعوه إلى الـــسماء وينتظـــرون رجوعـــه كالحمقى، والمـــوت خير للفتى من جهالة هي أظهـــر وأجلـــى. فاليوم ظهر صدقُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾، وبطُل ما

★ *يبدو أنه سهو، والصحيح: يتفطّرن (الناشر).*

كانوا يفترون. فسبحان الذي أحقَّ الحقّ وأبطلَ الباطل وأظهر ما كانوا يكتمون. توبوا إلى الله أيها المعتدون. وبأي حديث بعد ذلك تتمسّكون؟

ولستُ أريد أن أطوّل هذا البحث في هذه الرسالة الموجزة، وقد كتبْنا لك بقدر الكفاية، فإن شئتَ فاقرأْ كتبي المطوّلة في العربية. ولكني أرى أن أزيد علمك في معنى اسم "يوزآسف" الذي هو اسمٌ ثاني لصاحب القبر عند سكّان هذه الخِطّة، وعند النصارى كلِّهم من غير الاختلاف والتفرقة.

فاعلمْ أنها كلمة عبرانية مركّبة من لفظ يسوع ولفظ آسف، ومعنى يسوع النجاة●، ويُستعمل في الذي نجا من الحوادث والعواصف. وأما لفظ "آسف" فمعناه جامعُ الفِرق المنتشرة،

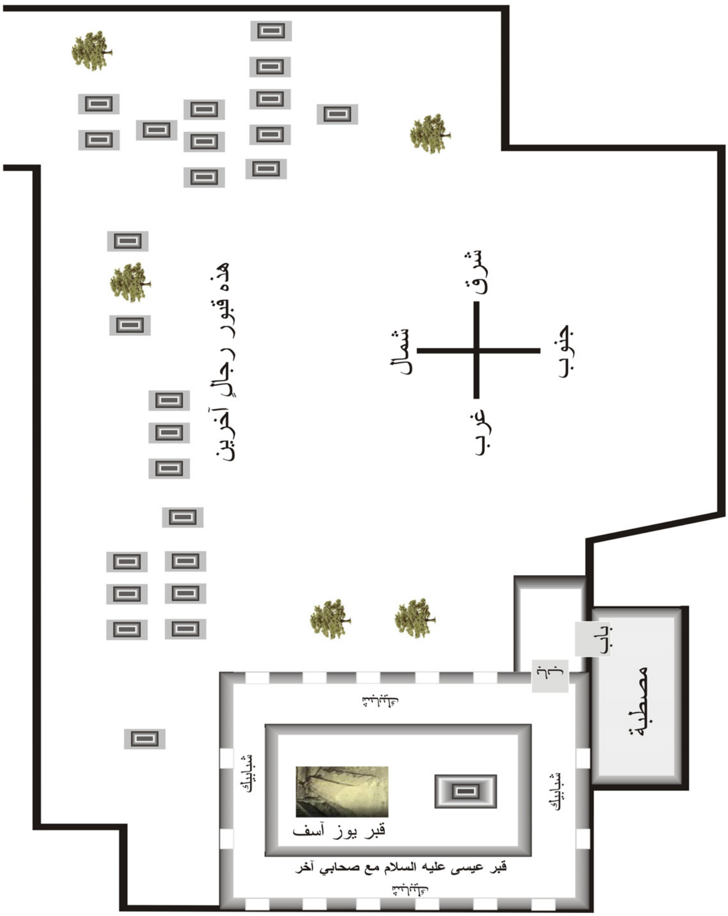
● **الحاشية:** كان من عادة اليهود أنهم يسمّون أطفالهم يسوع.. أعني "النجاة".. على سبيل التفاؤل وطلبِ العصمة مِن أمراض الجدري وخروج الأسنان والحصبة، خوفًا من موت الأَطفال بهذه الأمراض المخوّفة. فكذلك سمّتْ مريمُ ابنَه✦ يسوع، أعني عيسى، وتمنّتْ أن يعيش ولا يموت بالجدري وأمراض أخرى. والذين يقولون إن معنى يسوع المنجّي فهم كذّابون دجّالون، يكتمون الحق ويفترون، ويضلّون الناس ويخدعون. فاسألْ أهل اللسان إن كنت من الذين يرتابون. منه.

✦ *يبدو أنه سهو، والصحيح: ابنها (الناشر).*

وهو اسم المسيح في الإنجيل، كما لا يخفى على ذوي العلم والخبرة، وكذلك جاء في بعض صحف أنبياء بني إسرائيل، وهذا أمر مُسلَّمٌ عند النصارى، فلا حاجة إلى أن نذكر الأقاويل.

فثبت من هذا المقام أن عيسى لم يمت مصلوبًا، بل نجّاه الله من الصليب وما تركه معتوبًا. ثم هاجر عيسى ليستقْري ويجمع شتاتَ قبائل مِن بني إسرائيل وشعوبًا، فبلغ كشمير وألقى عصا التَّسْيار في تلك الخِطّة، إلى أن مات ودُفن في محلّة "خانيار" مع بعض الأحبّة. وإنْ تَحقَّقَ أنّ رسم الكَتْبةِ لتعريف القبور كان في زمن المسيح -ولا أخال إلا كذلك بالعلم الصحيح- لأفتَى العقل أن قبره عليه السلام لا يخلو مِن هذه الآثار، وإنْ كُشِفَ لظهَر كثير من الشواهد وبيّنات من الأسرار. فندعو الله أن يجعل كذلك ويقطع دابر الكفّار. وإنّا أخَذْنا عَكْسَ قبرِ المسيح فكان هكذا ومَن رآه فكأنه رأى قبر عيسى:

ضريح نبي في "خانيار" ببلدة "سرينغر" في كشمير



ثم بعد ذلك نكتب أسماء رجال ثقات مِن سُكّان تلك البلدة، الذين شهدوا أنه قبرُ نبي الله عيسى "يوزآسف" مِن غير الشك والشبهة، وهم هؤلاء●:

١) مولوي واعظ رسول صاحب، مير واعظ كشمير، ابن محمد يحيى صاحب مرحوم.

٢) مولوي أحمد الله واعظ، برادر واعظ رسول، مير واعظ كشمير.

٣) واعظ محمد سعد الدين عتيق عُفِيَ عنه، برادر مير واعظ.

٤) عزيز الله شاه، محلة كاچ گري.

٥) حاجي نور الدين وكيل، عُرْف عيدگاهي.

٦) عزيز مير نمبردار، قصبه پانپور، ذيلدار.

٧) مهر منشي عبد الصمد، وكيل عدالة، ساكن فتح كدل.

٨) مهر حاجي غلام رسول تاجر ساكن محلة ملكپوره، ضلع زينه كدل.

٩) مهر عبد الجبّار، خانيار.

١٠) مهر أحمد خان تاجر، إسلام آباد.

● **الحاشية**: كانت هذه الشهداء ألوفًا، ولكنا قنعنا بهذا القدر، وكلهم عمائد القوم ومشاهيرهم وصلحاؤهم. منه.

١١) مهر محمد سلطان مير، رجوري كدل.

١٢) ممه جيو، صراف كدل.

١٣) حكيم مهدي صاحب إمامية، ساكن باغبـــانبوره ضـــلع سنگين دروازه.

١٤) حكيم جعفر صاحب إماميه، أيضا.

١٥) محمد عظيم صاحب، إمامية، أيضا.

١٦) ميرزا محمد بيگ صاحب ڻهيكيدار، إمامية، ســـاكن محلـــة مدينة صاحب.

١٧) أحمد كله مندي بل ضلع نوشهره، إمامية.

١٨) حكيم علي نقي صاحب، إمامية.

١٩) حكيم عبد الرحيم صاحب إمامية، تحصيلدار.

٢٠) مولوي حيدر علي صاحب ابن مصطفى صاحب، إمامية، سَنَدْيافته كربلاء معلّى، مجتهد فرقة إمامية.

٢١) مهر مفتي مولوي شريف الدين صاحب، ابن مولوي مفتي عزيز الدين مرحوم.

٢٢) مهر مفتي مولوي ضياء الدين صاحب.

٢٣) مولوي صدر الدين، مدرس مدرسة همدانية، إمام مـــسجد

رازهپوره.

٢٤) مهر عبد الغني كلاشپوري، إمام مسجد.

٢٥) حبيب الله، جلدساز، متصل جامع مسجد.

٢٦) عبد الخالق، كهانڈپوره، تحصيل هري پور.

٢٧) مهر عبد الله شيخ، محلّة وڈي كدل، أصل تركه وان گامي.

٢٨) حبيب بيگ نمبردار، مَيْوَهْ فروشان، حبه كدل، سرينگر.

٢٩) أحمد جيو، زينه كدل، كشمير.

٣٠) مهر غلام محي الدين زرگر، محله كچه، بل قلعة، خانيار.

٣١) عبد الله جيو، تاجر ميوه جات باغات سركاري، سرينگر.

٣٢) محمد خضر، ساكن عالي كدل، سرينگر.

٣٣) عبد الغفار بن موسى جيوهنڈو، نروره.

٣٤) مهر عبلي واني ولد صديق واني، بوٹه كدل.

٣٥) مهر غلام نبي شاه حسيني.

٣٦) مهر عبد الرحيم، إمام مسجد كهنموه، تحصيل ترال.

٣٧) مهر أحمد شاه، سري نگر.

٣٨) يوسف شاه، نروره، سرينگر.

٣٩) مهر أمير بابا گرگري محله سرينگر.

٤٠) عبد العلي واعظ چمردوري، سرينگر.

٤١) مير راج محمد، كرناه، وزارت پهاڑ.

٤٢) لسه جيو حافظ ٹينكي پوره، سرينگر.

٤٣) خضر جيو، تار فروش.

٤٤) مهر عبد الله جيو فرزند أكبر صاحب درويش، خواجه بازار.

٤٥) محمد شاه ولد عمر شاه، محله ڈيڈي كدل.

٤٦) نبه شاه، إمام مسجد گاؤ كدل.

٤٧) مهدي خالق شاه، خادم درگاه حضرت شيخ نور الدين نوراني، چرار شريف.

٤٨) غلام محمد حكيم، متصل ڈل حسن محله.

٤٩) عبد الغني، نايد كدل.

٥٠) مهر قمر الدين دوكاندار، زينه كدل.

٥١) مهر مجيد شاه پير، أندرواري.

٥٢) مهر پير مجيد بابا أندرواري.

٥٣) إسماعيل جيو، دوبي، أيضا.

٥٤) سيف الله شاه، خادم درگاه أندرواري.

٥٥) قادر، دوبي، أيضا.

٥٦) مهر مولوي غلام محي الدين كيموه، تحصيل هري پور.

٥٧) محمد صدّيق، پاپوش فروش، محله شمس واري.

٥٨) محمد إسكندر، أيضا.

٥٩) محمد عمر، أيضا.

٦٠) لسه بٹ، أيضا.

٦١) مولوي عبد الله شاه، أيضا.

٦٢) حاجي محمد، كلال دوري.

٦٣) محمد إسماعيل، مير مگر، محله دري بل.

٦٤) عبد القادر كيموه، تحصيل هري پور.

٦٥) أحمد جيو، چيٹگر، محله كلال دوري.

٦٦) محمد جيو زرگر ولد رسول جيو، فتح كدل.

٦٧) عبد العزيز مگر ولد عبد الغني، محله اندرواري.

٦٨) أحمد جيو مگر ولد رمضان جيو، درے بل.

٦٩) محمد جيو مير، محله دري بل.

٧٠) أسد جيو، محله زينه كدل.

٧١) پير نور الدين قريشي، محله بٹه مالو صاحب، إمام مسجد.

٧٢) مهر غلام حسن بن نور الدين مرجان پوري، صفا كدل.

المؤلف ميرزا غلام أحمد القادياني ٥ جون سنة ١٩٠٢

ولما ثبت موت عيسى وثبت ضرورةُ مسيح يكسر الصليب في هذا الزمان، فما رأيكم يا فتيان؟ أيُهلِكُ الله هذه الأمّة في أيدي أهل الصلبان، أو يبعث رجلا يجدّد الدين ويحفظ الجدران؟

فوالله إني أنا ذلك المسيح الموعود، فضلاً من الله المنّان الودود، وأنا صاحب الفصوص، والحارس عند غارات اللصوص، وتُرْسُ الدين من الرحمان، عند طعن الأديان.

ألا تفكّرون في السلسلتين: سلسلة موسى وسلسلة سيد الكونيْن؟ وقد أقررتم أنه ﷺ جُعل في مبدأ السلسلة مثيلَ موسى، فما لكم لا ترون في آخر السلسلة مثيل عيسى؟ واعلموا أنكم تعلمون ضرورة مرسلٍ من الله ثم تتجاهلون، وترون مفاسد الزمان ثم تتعامَون، وتشاهدون ما صُبَّ على الإسلام ثم تنامون، ودُعيتم لتكونوا أنصار الإسلام ثم أنتم للنصارى تحاجّون. أتحاربون الله لتعجزونه؟ والله غالب على أمره ولكن لا تعلمون. وقد قرب أجلكم المقدّر فما لكم لا تتّقون؟ أتظنّون أني افتريتُ على الله وتعلمون مآلَ قوم كانوا يفترون. ألا لعنة الله على الذين يفترون على الله، وكذلك لعنة الله على الذين يكذّبون الحقّ لّما جاءهم ويُعرِضون. ألا تنظرون إلى الزمان، أو على القلوب أقفال من

الطغيان؟ أتطمعون أن تصلحوا بأيديكم ما فسد من العمل والإيمان؟ ولا يهدي الأعمى أعمى آخر وقد مضت سُنّة الرحمان. فاعلموا أن السكينة التي تطهّر من الذنوب، وتنـــزل في القلوب، وتنقل إلى ديار المحبوب، وتُخرِج من الظلمات، وتنجّي من الجهلات.. لا تتولّـــد هذه السكينة إلا بتوسيط قوم يُرسَلون من السماء، ويُبعَثـــون مـــن حضرة الكبرياء، وكذلك جرت سُنّة الله لإصلاح أهـــل الأهـــواء، فيُكذَّب هؤلاء السادات في أوّل أمرهم والابتداء، ويؤذَون مِن أيدي الأشقياء، ويقال فيهم ما يؤذيهم من البهتان والتهمة والافتـــراء، ثم يُرَدُّ الكرّةُ لهم فيُلقى في قلوبهم أن يرجعـــوا إلى ربّهـــم بالتـــضرّع والابتهال والدعاء، فيُقبِلون علـــى الله ويـــستفتحون، ويبتـــهلون ويتضرّعون، فينظر الله إليهم بنظرٍ ينظـــر إلى أحبّائـــه ويُنـــصَرون، فيخيب كلُّ جبّار عنيد معتدٍ في الظنون، ويجعل الله خاتمـــة الأمـــر لأوليائه الذين كانوا يُضحَكُ عليهم ويُستضعَفون، ويُقضى الأمـــر ويُعلَى شأنهم ويُهلَك قوم كانوا يُفسدون. كذلك جرت سُـــنن الله لقوم يطيعون أمره ولا يفترون، ولا يبتغون إلا عزّة الله وجلاله وهمْ من أنفسهم فانون. فينصرهم الله الذي يرى ما في صـــدورهم ولا يُترَكون. وإنهم أمناء الله على الأرض ورحمة الله من السماء وغيـــثُ الفضل على البريّة، لا ينطقون إلا بإنطاق الروح ولا يتكلمـــون إلا

بالحكمة والموعظة الحسنة. يأتون بترياق لا يتيسر لأحد من المنطق ولا من الفلسفة، ولا بكلماتِ علماء الظاهر المحرومين من الروحانية، ولا بحيلة من الحيل العقلية، بل لا يحيا أحد إلا بتوسيط هذه الأحياءِ مِن يد الحضرة، وكذلك اقتضت عادة الله ذي الجلال والعزّة. ولا يُفتَح ما قفّله الله إلا بهذه المقاليد، ولا ينزل أمره إلا بتوسط هذه الصناديد، وإن الأرض ما صلحت قط وما أنبتتْ إلا بماء من السماء، والماء وحي الله الذي ينزل في حُللِ سُحب الأنبياء. وكفاك هذا إن كنتَ من ذوي الدهاء. وإن كنتَ لا تقبل الحق ولا تطلبه فاطلب النور من الخفافيش، والثمرات من الحشيش، وقد نبّهناك فيما مضى، وأشرنا إلى عبدٍ اختاره الله لهذا الأمر واصطفى، ولا يراه إلا مَن هداه الله وأرى، فادعُ الله ليفتح عينك لتوانس عينًا جرت للورى، فإن القوم قد أشرفوا على الهلاك في بادية الضلالة، كإسماعيل من العطش في أرض الغربة، فرحمهم الله على رأس هذه المائة، وفجّر ينبوعًا لأهل التّقى، ليروي أكبادهم وأولادهم وينجيهم من الردى. فهل فيكم مَن يطلب ماءً أصفى؟

وهذا آخر ما قلنا في هذا الكتاب لمن اتّعظ ووعى، والسلام على من اتّبع الهدى.

تمّت